من بلاغة التعبير العددى

الكنائى والرمزى
فى النظم القرآنى

الدكتور
محمد على أبوزيد

بسم الله الرحمن الرحيم

من بلاغة التعبير العددى الكنائى والرمزى فى النظم القرآنى

الدكتور
محمد على أبوزيد

مدخل إلى الدراسة

لله الذى أحصى بطمه كل شئ عددا ، وخص العربية بالتشريف من بين سائر اللغات، لتكون وسيطا حاملا آخر وحى السماء إلى أهل الأرض فى كل مكان إلى يوم الدين ٠

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير من أبان عن الله مراده بأفصح لسان، وأبين منطق، وعلى آله وصحبه وتابعيه، والعلماء العاملين على منهجه ٠

وبعد

فالبلاغة الحقة والخالصة . إنما تكون حين يمضى بها أصحابها على الطريق الموصل لأن تكون أهلا لأن توصف بقيد العربية ليتحقق لها بذلك الأصالة ٠

وإنما يكون لها ذلك حينما تستند إلى علوم العربية جميعا، تستمد منها وتستقى من روافدها، فتنمو حينئذ وتثمر، ذلك أن البلاغة العربية إنما كانت ونشأت وصولا إلى هدف واضح، وغاية معينة والمتمثلة فى خدمة القرآن الكريم : تبصرا لمتصرفات تراكيبه، وطرق أدائه، ودلالات ألفاظه وسياقاته ، اقترابا من شئ من أسرار إعجازه واستشرافا لبعض من دقائق عباراته، ثم المدافعة وصد ما يقول به أمثال أولئك المغرضين والطاعنين والملبسين والمشككين فى نظم ذلك الكتاب وطرق أدائه ومسلك عباراته على نحو ما كان منذ

نزل ولا يزال الحال على هذا من مثيرى الفتن بغية النيل من دين الله ومنهاجه.

وقد وعى علماء هذه الأمة الأوائل هذه الحقيقة، وأدركوا هذا الأمر وعقلوا مغزاه ومتطلباته وآلات تحصيله فجاء عملهم على مقتضى كل هذا، وقطعوا فى ذلك أشواطا جادة مثمرة فى أطوار وحقب متتالية، إلى أن طرأ على الميدان ما جعل الطريق بالسالكين يختلف قليلا أو كثيرا ، لكن يبقى مع ذلك لكل طور ومرحلة وعهد وجيل أهميته وأثره الذى لا ينبغى أن ينكر، أو يشكك فيه بالنظر إلى واقع السياق التاريخى لكل مرحلة والملابسات المحيطة والمؤثرة فى كل عهد وحال أهل علمه بما يجعلنا لا نعمم حكما قاطعا بإسقاط أو طرح جهد جيل بجملته .

فمما لا شك فيه أن مع كل طور ومرحلة ما يمكن الانتفاع به والاستمداد منه والبناء عليه، فليس ما أتى به من يعرفون فى العرف البلاغى بالمتأخرين شرا كله، ولا هو عبث ينبغى الإنصراف عنه وهجره، أو انحرافا عن الطريق الصحيح وضلالا عن الطريق السوى، فقد كان لهؤلاء كما كان لأمثالهم ممن سبقوهم ظروف وأحوال ومهيئات انطبعت فى نفوسهم ــ دون ريب ــ وطبعت آثارها على نتاجهم وواقعهم العلمى وطريقتهم فى الدرس ومنهجهم وغاياتهم كما كان لغيرهم ما لا ينبغى التغاضى عنه أو التقليل من شأنه والتهوين من أمره وإنما اقتناص النافع وتخليصه والانتفاع به بجهد وروية وإنصاف.

والمهم أن نأخذ من كل عهد خير ما فيه ونآلف بين هذا وذاك ليستخلص من مجموع كل هذا ما يصح به الأخذ منه والاهتداء به والتأسيس والبناء عليه والإنطلاق منه .

وهنا أذكر بالفضل جهد وعلم أحد المنتسبين تاريخيا إلى عهد المتأخرين من البلاغيين ــ وإن كان له مسلك آخر وطريق خاص ــ مختلف ذلك أننى كنت أطالع قدرا كتاب بديع القرآن لابن أبى الإصبع يوما منذ عشر سنين أو يزيد فوجدته يقف بالتحليل واللفت إلى كيفية بناء النظم فى آية النساء : ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ ويجيب عما قدره وعبر عنه فى صورة تساؤلات تدور حول الكيفية الوارد عليها الصياغة العددية فى هذا التركيب : ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ عدولا عن الطريقة الأصلية لبناء مثل هذه الأعداد، وكذا ما وراء إيثار طريق العطف بالواو دون: أو، ثم النزول إلى التكليف بالواحدة بعد الأربع على خلاف المتبادر من التدرج وأخيرا سلك التعبير طريق الأصالة فى صياغة العدد الذى ينبغى العود إليه عند فقد قيد إباحة ما رخص به فى التعدد، وعند الفراغ مما أجاب به وجدتنى وكأننى أقرأ واسمع هذا النظم الكريم أول مرة، وحينئذ صار فى النفس إقبال على هذا الجانب بلاغة التعبير العددى فى النظم القرآنى ومتابعة طرقه ومسالكه فى النظم القرآنى ومضى على ذلك سنون عددا، لم تكن كلها ترددا، أو إحجاما، أو انصرافا بقدر ما كانت تهيئة وإعدادا، أو رصدا للتراكيب القرآنية الواردة على هذا النمط ومراقبتها من خلال السياقات والأغراض، إلى أن هيأ الله الأسباب فصار طريق هذه الدراسة واضحا إلى غاية مطومة ومحددة كذلك .

وعلى هذا فليست هذه الدراسة على الطريق نفسه الذى سلكه صاحب الإعجاز العددى فى القرآن الكريم حيث كانت الغاية المصرح بها والعامل على مقتضاها محددة وهى: إثبات التماثل أو التقارب العددى بين الموضوعات المتماثلة، أو المتشابهة، أو المتناقضة، أو المترابطة، ومن ثم كان جهده المقدر منصرفا إلى حصر وحشد

الآيات القرآنية على نحو يحقق له ما تغياه ليصل إلى ما استنتجه واعتقده بابا فى الإعجاز .

فنراه قد جمع بين الدنيا والآخرة والملائكة والشياطين والحياة والموت والبصر والبصيرة والقلب والفؤاد والنفع والفساد إلى نحو هذا[1]

كما أن هذه الدراسة لا تتجه أصلا إلى أن تكون حاشدة للأعداد القرآنية على سبيل الحصر والاستقراء إذ لا يراد لها أن تكون فهرسة لهذه الأعداد وتصنيفها بحيث تكون موسوعة فى العدد القرآنى أو فى جانب منه إذ لا يدخل ذلك فى صميم الدراسات البلاغية التطبيقية ــ ما عدا بعض السياقات التى تقتضى هذا للبناء عليه، أو الاستنتاج منه ــ فهذا جهد قامت به دراسة أخرى عنيت بهذا الشأن مع تعليقات أحيانا على سبيل الإجمال ودون أن تعنى بما وراء العبارة العددية[2] .

وشأن الدراسة البلاغية أن تكون معنيه أصلا بمراقبة ومتابعة مسالك العبارات العددية فى النظم القرآنى من حيث طرق صياغتها والعبارة عنها وبناء التركيب الحامل لها ودلالات ذلك من واقع السياقات، والقرائن، والأحوال وخصائص التعبير، وسمت التركيب، وغير ذلك مما يهيئ ويعين على تبصر بلاغة التعبير العددى .

ويفهم من ذلك أن ليس كل عدد وارد فى القرآن الكريم مجالا لهذه الدراسة وهدف لها، وهذا صحيح،وليس مرد ذلك إلى أنها ليست عملا معجميا فقط، وإنما لأن هناك من الأعداد القرآنية ما لا حديث للبلاغة حولها،وذلك حينما يكون المراد أن تكون هذه الأعداد نصا فى المراد بحيث تكون قاطعة الدلالة،بأن كانت فى حق من حقوق العقيدة أو الشريعة بأحكام وفرائض وأمثال هذا مما يجعل الدلالة المباشرة والمجردة للأعداد مقصودة فى ذاتها،ولا سبيل إلى تجاوزها من نحو النصف والربع والثمن والثلث والثلثين فى

(١) ينظر الإعجاز العددى للقرآن الكريم د/ عبدالرزاق نوفل ، دار الريان للتراث ١٧٢٧هـ = ١٩٨٨م.

(٢) ينظر موسوعة الإعداد فى القرآن الكريم مهدى سعيد رزق كريزم دار طويق للنشر والتوزيع بالرياض ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م

المواريث، وكذا الصوم ثلاثة أيام فى نحو كفارة اليمين أو الصوم شهرين كفارة للقاتل خطأ أو المظاهر ونحو هذا .

ولا يعنى هذا أبدا أن يد البلاغة قد خلت تماما عن أن تتناول أمثال هذا لكن بالنظر إلى الطريق التعبيرى المسلوك والعبارة المتخذة وسيطا للأداء فليس الحديث حينئذ يتصل بدلالات هذه الأعداد ووجه اختصاصها وتعيين مقدارها فيما كانت فيه، فذلك حكم شرعى مرده إلى المشرع الأعلى الأعلم بما وراء ما افترض من حكم فى أحكامه، وربما طمح بعض من أهل الفقه إلى فقه ما وراء ذلك لكنه يبقى على كل حال ليس ميدان الأحاديث البلاغية وإنما ميدانها حينئذ تبصر التركيب وما ورد به وجاء عليه، فما من شك فى أن من وراء إيثار العدول مع قوله تعالى : ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ مغزى جليلا يتصل اتصالا مباشرا بأصل الغرض والمراد، كما أن من وراء وصف صوم الشهرين فى كفارة القاتل والمظاهر بالمتتابعين غرضا إذ يفوت بمراعاته : انقطاع الصوم وعدم الاعتداد بما سبق منه أصلا ، وكذا ورود التركيب الحامل لرخصة الصوم لمن حصر ولم يتيسر له الهدى ﴿فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة﴾ فقد كان من وراء تفريق العدد أولا ، وجمعه من بعد ووصفه بالكمال ما يعود على المعنى والغرض وهكذا الحال فيما هو مماثل بما يدخل فى شئون البلاغة ويصبح لها معه حظ مقسوم وجهد ينبغى أن تنهض بمثله .

وبناءا على ذلك فقد رأت الدراسة من واقع ما اهتدت إليه من حال التعبير العددى مما له مجال فيها أن هناك أنماطا فى التعبير العددى خرجت فى العبارة عن النمطية وعدل بها إلى طريق آخر فى الصياغة أو فى التركيب وبناء الجملة أو الجمل أو المعنى بحيث تبرز فى معرض آخر غير الظاهر والمتبادر ، كما كان من العبارة العددية ما ورد واصفا أو موصوفا أو مضافا لما اشتق منه وكذا برزت بعض

التراكيب العددية فيما يوهم ظاهره التعارض وأحيانا يرد على طريق من الإجمال والتفصيلِ على وجوه مختلفة، كما قد يرد أو يأتى العدد صريح الدلالة على المراد به أو يكون على حال من الاشتباه فيشكل أمره فتتعدد فيه الآراء أو تتباين ثم إن من هذه العبارات العددية القرآنية أيضا ما سلك سبيل الكناية عن القلة أو انتفاء الشئ أصلا أو الكثرة، وربما كان من وراء العبارة العددية رمز وإشارة كذلك .

وهذا الجانب الأخير هو مجال هذه الدراسة إعمالا لموجب مقتضيات الحال فإن متابعة كل هذه الجوانب يستدعى ميدانا أرحب أرجو أن أتابع خطواته يوما .

ولأن هذه الدراسة لا تود أن تكون مجرد خاطرات، أو نظرات وتأملات مما يطرأ أو يتبادر أو يخطر أو يواتى الفكر فيعبر عنه دون تحقق أو ركون إلى مستند صحيح فقد عمدت قدر تيسير الله تعالى وعونه إلى الاستمداد من كلام أهل العلم وما هئ لها من دراسات قديما وحديثا، ولعل هذا فى جانب منه يفسر ما قد يلحظ من كثرة الإشارة إلى المصادر والمراجع، أو الإحالة إليها عملا بمقتضى أمانة البحث خصوصا إذا ما كان الأمر يتصل مباشرة بالدراسة القرآنية من حيث كان هو المصدر والغاية معا .

كما يفسر كذلك ما قد يلحظ أحيانا من عدم الاكتفاء بما هو أقرب وأصوب فى التوجيه حذرا من المصادرة فهناك سياقات تأبى التحكم أو التعتيم، ثم إن فى ذكر الضعيف أو البعيد أو المتكلف ما به يسفر وجه القوى والقريب والصواب، وأحيانا ما يقتضى السياق والغرض إبقاء باب الاحتمالات مفتوحا بحيث يصير القطع بوجه ما وإفراده نوع تحكم مع وفرة الدلالة فى العبارة القرآنية وامتلائها، وهذا ــ دون ريب ــ، من أمارات ثراء العطاء القرآنى وفيض تراكيبه .

ومع كل جهد وتحصيل ما أمكن من أدوات سيظل القرآن الكريم ــ لا ريب ــ فوق كل جهد أرحب مدى وأسخى عطاءا ، كلما ظن طامح فى الاقتراب من أفقه إذا به يترامى بعيدا ليظل على الزمان إعجازا، منه المكنون، الذى لا سبيل إلى استبصاره أو الاقتراب منه كما أن منه ما يهدى الله إليه وقتما يشاء لمن عمل بمقتضيات التكليف بالتدبر الحق المدرك صاحبه حدود بشريته وحقيقة الإعجاز وأن من حقيقة إعجازه : الوقوف دونه وعدم إدراكه أو لا يتيسر العبارة عنه وإن وقع فى النفس أثره ومفاده .

وما كان لهذه الدراسة أن تدعى لنفسها أبدا أنها بلغت تمام الغاية أو حصلت كمال بغيتها، وإنما كل ما ترجوه أن تكون جهدا مخلصا وخطوة على طريق وادى البلاغة القرآنية الخصيب والرحيب .

والله تعالى الهادى والمستعان ومنه التوفيق والرشاد .

جرى عرف البيان العربى على ضرب من التصوير لا يراد معه باللفظ ظاهر معناه ودلالته المباشرة، وإنما لازمه، وما جعل اللفظ أمارة له، ودليل عليه، وهذا الطريق هو ما استقر عليه عرف الاصطلاح البلاغى بالكناية، والمتابع لطرق الآداء العربى وسمت استعمالاتها يلحظ جريان هذا فى جانب العبارة العددية ، وإن اشتهر عندهم ألفاظ عددية بذاتها من نحو السبعة ومضاعفتها السبعين والسبعمائة على نحو ملحوظ ، وينقل الألوسى تعليلا لشيوع دلالة هذه الأعداد خاصة على معنى الكثرة فى كلامهم بشأن السبعة مشتملة على جملة أقسام العدد ، فإنه ينقسم إلى فرد وزوج وكل منهما إلى أول ومركب ، فالفرد الأول ثلاثة والمركب من خمسة والزوج الأول اثنان، والمركب أربعة ، والسبعة تشتمل على هذه الأقسام ثم إن أريد المبالغة جعلت آحادها أعشارا وأعشارها مئات [1] إلى نحو ذلك مما طولوا فيه واتسعوا، وإن كان أكثره أقرب إلى علم الحساب والمنطق منه إلى روح البلاغة وخصائص التراكيب .

والمهم أن البيان القرآنى قد جرى عرف استعماله على هذه الطريقة فى مواقع عديدة ، وأغراض مختلفة ، وسياقات شتى، حين لا يكون القصد إلى شأن يتصل بالعقيدة ، أو يكون المجال لأحكام وتشريع وفرائض ، ونحو ذلك مما تسلك فيه العبارة القرآنية مسلك التحديد القاطع فى الدلالة على المراد بحيث يكون التعبير العددى نصا فى معناه حسما للمقصود ، ونفيا لأن يحمل الكلام على غير مؤداه ، مما لا يتفق وأمثال هذه المقاصد، ومع ورود كثير من العبارات العددية فى النظم القرآنى كناية عن الكثرة ، إلا أنه يلحظ جريان طائفة من الأعداد خاصة فى البيان القرآنى مثل السبعة والسبعين

(١) روح المعانى جـ١٠ صـ١٤٨ .

والألف والألوف إلى أمثال هذا مما تعرض له الدراسة تفصيلا من واقع خصوص سياقاته وأغراضه .

وقد ورد فى البيان القرآنى طائفة اخرى من التعبير العددى على خلاف المشتهر فى الكناية العددية .

فقد آتت طائفة من التعبير العددى أو ما يلحق به، ويقوم مقامه مما جاء مع سياق العدد فيه العدد مقصدا أصيلا، وله مدخل فى غرض الكلام، كالمعشار، كاليوم أو بعضه وساعة منه ، مما هو وارد فى أحوال وشئون دالة على التقليل فى الأمد الزمنى .

وهذا هو الأكثر فيما ورد على هذا النحو، ولربما جاء على غير هذا المعنى، لكن يظل فى الحالين المعنى المباشر للتعبير العددى ليس مرادا بصريح لفظ معشار واليوم والساعة، والدلالة المجردة والمتبادرة بظاهر الألفاظ، وإنما إلى ما ينبئ عنه الغرض والسياقات المرشدة إلى تقليل ما هو كثير أصلا، وفى واقع الأمر أو ما يظن فيه ذلك التباسا، بل قد يصار أيضا إلى قصد نفى الشئ رأسا ، وانتفاء كونه على كل حال قل أو كثر .

ومع ما قد يبدو فى ظاهر الحال من تعدد سياقات هذا الاستعمال واختلافها، إلا أن الفكر والنظر المراقب لا يكاد يخطئ ما ينبئ عما بين غالب هذه السياقات من ربط واصله فهناك خيط ممدود ينتظمها من حيث وحدة أصل الغرض العام، فما هديت إليه الدراسة ويدخل فى هذا الباب يعمه أو يحتويه إطار واحد إذ هو حال أحاديث تدور حول أهل الكفر والمكابرين ممن ركبهم الغرور فركبوا متن التكذيب، فغاب عنهم ما وراء الإمهال والاستدراج، حتى إذا ما وقع بهم ما أذهلهم حين بدا لهم ما كانوا يلجون فيه من قبل، ماثلا شاخصا، التبس عليهم الأمر فصاروا وكأنهم لا يدرون عن حقيقة مدد زمانهم ومكوثهم فى حياتهم الأولى شيئا سوى اليسير منه فقد اشتبه

الأمر عليهم، وصاروا على حالة من التخبط فلا يكادون يميـزون أو يقدرون .

وهذا ما تعمد الدراسة إلى تفصيل أحاديثه بعد الفراغ مما رآته تهيئة وتمهيدا للبناء عليه .

عن القلة بلفظ معشار :

ومن التعبير بالعدد المراد به الكناية عن القلة وما فى معناها، قوله تعالى : ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (١) .

فالمعشار : العشر يقال: معشار الدرهم وعشرة ، أى أن هؤلاء لم يبلغوا عشر ما أعطى أولئك(٢). بمعنى واحد على ما يذكره كثيـر من أهل اللغة والتفسير، وبمتابعة المادة واشتقاقاتها، ومراقبة سياق النظم الحكيم ما قد يعين على لمح الفرق فى خصوص الدلالـة بـين التعبيرين .

فالعشر : الجزء من عشرة أجزاء ، والعشار : الإبل أتى عليها عشرة أشهر من حملها . والعشار : من يستحل قبض عشـر المـال وإنما الفرض فيه ربع العشر . والعشر: أن ترد الإبـل فـى اليـوم العاشر، والمعشير : الجماعة ذات العدد ، والعشـيرة: أهـل الرجـل يتكثر بهم عددا . والعشر أخص من العشيرة، فهو المعاشر ، يكـون لعشيره رفيقا صاحبا فلا يبقى فردا واحدا .

والذى يبدو أن لفظ معشار المعبر به هنـا لمطلـق التجزئـة والتقليل. على حين يستعمل العشر بدلالته الرقمية المحددة، فيراد به الجزء من عشرة، ولم يأت فى القرآن بهذه الصيغة . إذ لـيس فـى المراد والغرض قصد الدلالة على المعنى المباشر والمعنى الحسـابى

---

(١) سبأ : ٤٥ .

(٢) عمدة الحفاظ جـ٣ صـ٩٤ .

للفظة المحدد لمقدار ما بلغه هؤلاء المتحدث عنهم على هذا النحو من التعيين والتحديد، بل الأنسب بالغرض الإشارة إلى أن هؤلاء المشركين المكابرين ما بلغوا شيئا مما كان لأمثالهم فى الكفر والعناد .

وواضح أن الغرض هنا مزيد تبكيت هؤلاء المشركين على ما كان من حالهم من النفور عن الدعوة كبرا مع أن فيمن كان قبلهم من كانوا أشد منهم قوة ، وأكثر تمكينا ونعما، ولم يحل ذلك كله من حلول مراد الله بهم فكيف حال هؤلاء الضعفاء ، فكأن التعبير بالمعشار معه دلالة على أن ما عليه هؤلاء بالنسبة لما كان عليه غيرهم ممن صاروا مثلا لا يكاد يعدل شيئا .

وعند الفخر توجيه للمراد على نحو آخر يبدو بعيدا ــ وإن اجتهد فى الترويج له ــ مبناه على عود ضمير : ﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ على المكذبين من المتقدمين . أى الذين من قبلهم ما بلغوا معشار ما آتينا قوم محمد عليه السلام من البيان والبرهان ، وذلك لأن القرآن الكريم أكمل من سائر الكتب وأوضح، ومحمد عليه السلام أفضل من جميع الرسل وأفصح، وبرهانه أوفى، وبيانه أشفى، ثم إن المتقدمين لما كذبوا بما جاءهم من الكتب وبمن آتاهم من الرسل أنكر عليهم، وكيف لا ينكر عليهم، وقد كذبوا بأفصح الرسل، وأوضح السبل، يؤيد الفخر ما ذكره من المعنى بقوله تعالى : ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ يعنى غير القرآن ما آتيناهم كتابا وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير، فلما كان المؤتى فى الآية الأولى الكتاب ، فحمل الإيتاء فى الآية الثانية على إيتاء الكتاب أولى) [1].

(١) التفسير الكبير جـ٢٥ صـ٢٦٨ .

وعلى كل حال يبقى التعبير هنا بالمعشار غير مراد به حقيقة معناه العددى وإنما يراد به ضعف الحال ، أو عدم كمال الدليل والبرهان وإن بقى أول التوجيهين أولى وأظهر بحكم ظاهر السياق والنسق .

فإن جملة ﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ معترضة، والاعتراض بها تمهيد للتهديد وتقريب له بأن عقاب هؤلاء المشركين من القرشيين أيسر من عقاب الذين من قبلهم فى متعارف الناس مثل قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (١).

عن القلة بلفظ الساعة نكرة ومعرفة : أو لنفى الشيئ رأسا:

جاء ذكر الساعة فى البيان القرآنى نكرة ومعرفة، ويلحظ مع التعريف انصرافها علما على يوم القيامة، ومع التنكير ورودها مثلا لأقل الوقت وغاية ما يمكن تصوره فى مجال الزمن .

يقول تعالى : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣) ، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٤) .

فلفظ (ساعة) فى الآيات الثلاث تعنى شيئا قليلا من الزمان، فإنها مثل فى غاية القلة منه، أى لا يتأخرون عنه أصلا . كما يقول أبو السعود(٥)، والسياق والغرض لذلك، فالآيات فى مجال الوعيد

(١) التحرير والتنوير " الجزء الثانى والعشرون " صـ٢٢٩ .
(٢) سورة الأعراف : ٣٤ .
(٣) سورة يونس : ٤٩ .
(٤) سورة النحل : ٦١ .
(٥) تفسير أبى السعود جـ٤ صـ١٥٢ .

والتهديد لكل أمة وجماعة اشتركت فى عقيدة الشرك والكفر والإلحاد وسائر الملل الضالة، وأن إمهال الله معين ومنتهاه مقطوع به لا مجال لتبديله وتغييره على نحو ما، حتى إذا ما وقع وحل ما قضى به عليهم : ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عن ذلك الأجل المضروب شيئا ما من الزمان، لا ساعة ولا ما هو دونها، فالتعبير بلفظ ساعة إذن لا يراد به الوقت المعين من حيث دلالتها على الوحدة الزمانية المخصوصة من اليوم بدلالة الغرض الحاصل بنفى كل من الاستقدام أو التأخير ، وواضح أن ليس المراد انتفاء التقدم مع إمكان وقوعه فى نفسه كالتأخر ، إذ هو ممكن فيطلب، بل للمبالغة فى انتفاء التأخر بنظمه فى سلك المستحيل عقلا، كما فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ (١) فإن من مات كافرا مع ظهور أن لا توبة له رأسا قد نظم فى عدم قبول التوبة فى سلك من سوفها إلى حضور الموت إيذانا بتساوى وجود التوبة حينئذ وعدمها أصلا(٢)

فعطف : ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ من باب التتميم لبيان أن ما علمه الله وقدره على وفق علمه لا يقدر أحد على تغييره وصرفه . وقريب من هذا مع اختلاف المعنى والغرض والسياق وسمت الكلام قول أبى الشيص :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى ∴ متأخر عنه ولا متقدم

وكل ذلك مبنى على تمثيل حالة الذى لا يستطيع التخلص من وعيد أو نحوه بهيئة من احتبس بمكان لا يستطيع تجاوزه إلى الأمام ولا إلى الوراء .

---

(١) سورة النساء : ١٨ .

(٢) تفسير أبو السعود جـ٤ صـ١٥٢ .

وأما قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ...﴾ (١) فالمراد بلفظ ساعة هنا الوقت القليل والزمن اليسير ففيما سبق لا وقت أصلا ولا زمن، لكن الأمر هنا زمن الحشر ومع هؤلاء المحشورين مختلف، فقد كان لهم مكث فى الدنيا أو البرزخ زمنا دون ريب، وليس الغرض حسم نفيه أصلا، وإنما الدلالة على اليسير القليل منه، لمغزى وتخصيصها بالنهار لأن ساعاته أعرف من ساعات الليل ، فهؤلاء يشبهون فى أحوالهم الظاهرة للناس بمن لم يلبث فى الدنيا ولم يتقلب فى نعيمها إلا ذلك القدر اليسير، فإن من أقام بها دهرا وتمتع بمتاعها لا يخلو عن بعض آثار نعمه وأحكام بهجة منافية لما بهم من رثاثة الهيئة وسوء الحال. هذا هو الفهم المتبادر وانصراف الحديث إلى زمان المكث فى الدنيا .

وهناك من صرف الكلام إلى زمن البرزخ، فكأنهم ما لبثوا فى برزخهم سوى ذلك المقدار من الوقت اليسير ساعة من النهار، وثمرة تقييد الوقت على هذا النحو ساعة من النهار حينئذ، بيان غاية يسر أمر الحشر بالنسبة إلى قدرته تعالى ولو بعد دهر طويل وفى هذا إبراز بطلان استبعادهم وإنكارهم وتعجبهم بمثل قولهم :﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ونحو ذلك، أو يكون الغرض بيان تمام الموافقة بين النشأتين فى الأشكال والصور فإن قلة اللبث فى البرزخ من موجبات عدم التبدل والتغير فيكون قوله عزوعلا : ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ بيانا وتقريرا له لأن التعارف مع طول العهد قد ينقلب تناكرا.

وأما على التوجيه الأول فتركيب التعارف استئناف يؤذن بتحقق أمر التعارف بينهم حتى لكأنهم لم يتفارقوا إلا قليلا وذلك حين

(١) سورة يونس : ٤٥ .

خروجهم من القبور إذ هم حينئذ على ما كانوا عليه من الهيئة المتعارفة فيما بينهم ثم ينقطع التعارف بما يطرأ عليهم من شدة الأحوال المذهلة والمشغلة فضلا عن اعتراء الأحوال المغايرة والمبدلة فالكل منصرف إلى شأنه ونفسه(١).

سبقت الإشارة إلى أن لفظ الساعة معرفة باللام علم بالغلبة فى العرف القرآنى على وقت فناء هذا العالم الدنيوى والدخول فى العالم الآخروى وقد ورد ذلك فى الأعراف : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا...﴾ (٢) وفى طه : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ (٣) ، وفى الحج : ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (٤)، وفى القمر:﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (٥)، وفى النازعات : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ (٦) .

قال صاحب الكشاف : الساعة من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا، وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة، أو لأن حساب الخلق يقضى فيها فى ساعة واحدة فسمى بالساعة لهذا السبب، أو لأنها على طولها كساعة واحدة عند الخلق(٧).

---

(١) تفسير أبو السعود جـ٤ صـ١٥٠ .
(٢) الآية (١٨٧) .
(٣) الآية (١٥) .
(٤) الآية (٧) .
(٥) الآية (١) .
(٦) الآيتان (٤٢ ــ ٤٣) .
(٧) الكشاف جـ٢ ــ صـ١٣٤ .

وفى إبهامها عن الخلق مقصد جليل ليتحقق أن وقت الساعة مكتوم عنهم، فيصيرون على ترقب دائم على ذلك يحملهم إلى العمل على مقتضيات التكاليف والمسارعة إلى باب التوبة قبل البغتة .

وفى النظم القرآنى موقع جامع للفظ الساعة على الطريقتين المتقدمتين تنكيرا وتعريفا،ومن حيث اختلاف الدلالة والمراد بهما كذلك

يقول تعالى:﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ... ﴾(١)

هذا فى وصف حال المشركين وأشباههم، حين تقوم الساعة فى استصحاب مكابرتهم التى كانوا عليها وعاشوا بها فى حياتهم الدنيا، بأن الله حين يعيد خلقهم وينشئ لهم أجساما كأجسامهم، ويعيد إليهم عقولهم يكون تفكيرهم يومئذ على وفاق ما كانوا عليه فى الدنيا من السفسطة والمغالطة والغرور .

هنالك يودون أن يقنعوا أنفسهم بأنفسهم بصحة دليلهم القديم المتهافت بعلة أن بعثهم ما كان إلا بعد مدة قليلة من وقت إقبارهم قبل أن تنعدم أجزاء أجسامهم، فيخيل إليهم أنهم محقون فى إنكاره فى الدنيا إذ كانوا قد أخبروا أن البعث يكون بعد فناء الأجسام ، فهم أرادوا الاعتذار عن إنكارهم البعث حين تحققوه، أنهم لو علموا أن البعث يكون بعد ساعة من حلول فى القبر لأقروا به .

وقد أنبأ عن هذا تسمية كلامهم معذرة بقوله تعالى عقبه : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ ... ﴾ (٢) وهذه فتنة أصيبوا بها وقد جعلها الله لهم ليكونوا هزأه لأهل النشور. وينفضح غلطهم وخطأهم وغباوة أفهامهم كما دل عليه قوله تعالى من بعد : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا

(١) الروم الآية ٥٥ .
(٢) الروم ــ الآية ٥٧ .

الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ ﴾ [1] كما يومئ إلى هذا أيضا ما ذيل به النظم الكريم: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ فبمثل خطأهم هذا كانوا فى الدنيا يصرفون عن الحق بمثل هذه الترهات .

ونظير هذا فيما هو دال على غاية تخبطهم ما ساقه البيان القرآنى عنهم فى مواضع أو مواقف أخرى: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا ﴾[2] .

فقد بلغ من ضلالهم أنهم يقسمون وهذا بعد ما يجرى بينهم من الجدال من قول بعضهم : ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا ﴾ وقول بعضهم : ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا ﴾ وقول آخرين : ﴿لبثنا يوما أو بعض يوم ﴾ وبعض اليوم يصدق بالساعة، كما أبان التعبير القرآنى عنهم فى هذا السياق . والظاهر أن هذا القسم يتخاطبون به فيما بينهم كما اقتضته آية سورة طه، أو هو حديث آخر أعلنوا به حين اشتد الخلاف بينهم لأن المصير إلى الحلف يؤذن بمشادة ولجاج فى الخلاف، وذكر الزمخشرى أن ذلك وقت ينقطع عذابهم فيه، واستقلوا مده لبثهم كذبا أو نسيانا لما عراهم من هول المطلع، وجوز أن يكون استقلالهم تلك المدة بالإضافة إلى مدة عذابهم يومئذ، ولا يبعد علمهم بها سواء كان هذا القول فى أول وقت الحشر أو فى أثنائه أو بعد دخول النار، وجوز كذلك أن يكونوا عدوا مدة بقائهم فى الدنيا ساعة لعدم انتفاعهم بها والكثير بلا نفع قليل كما أن القليل مع النفع كثير، فالكلام تأسف وتحسر على إضاعتهم أيام حياتهم[3].

---

(١) الروم ــ الآية ٥٦ .
(٢) طه ــ الآية ١٠٣ ، ١٠٤ .
(٣) الكشاف جـ٣ صـ٢٢٧ .

وبين قوله [الساعة] و[ساعة] الجناس التام المماثل وليس لهذا نظير فى القرآن الكريم على ما يذكر السيوطى، إذ قد اتضح أن المراد بالساعة معرفة القيامة على حين أريد بالثانية [ساعة] منكرة قطعة من الزمان قليلة على حد تعبير صاحب روح المعانى(١).

ولا يؤثر فى ذلك اختلاف الحركة الإعرابية، ولا وجود "أل" فى إحدى الكلمتين لزيادتها على الكلمة، وكذا لا يضر اتحاد مدلولهما فى الأصل لأن المعرف فيه كالمنكر بمعنى القطعة من الزمان لمكان النقل فى المعرف وصيرورته علما على القيامة كسائر الأعلام المنقولة، وأخذ أحدهما من الآخر لا يضر أيضا، كما يوضح ذلك ما قروره فى جناس الاشتقاق، وظن بعضهم أن الساعة فى القيامة مجاز ولذا أنكر التجنيس هنا، إذ التجنيس المذكور لا يكون بين حقيقة ومجاز فلا تجنيس فى نحو ركبت حمارا ولقيت حمارا معهما تعنى رجلا بليدا واشتهر أنه لم يقع فى القرآن الكريم هذا النوع من الجناس إلا فى هذا الموضع. وجزم بذلك أمثال السيوطى(٢) وقد استنبط الشيخ ابن حجر موضعا آخر للجناس التام فى البيان القرآنى وهو قوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ۞ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (٣) لأن الأبصار المذكورة أولا جمع بصر والأبصار المذكورة ثانية مراد بها ما هو جمع بصيرة، ونوقش فى ذلك لأنه وإن كان الإبصار الواقعة فى جملة التذييل مراد بها ما هو جمع بصيرة أن ذلك ليس من باب الحقيقة بل بطريق الاستعارة لأن البصيرة لا تجمع على أبصار بل على بصائر، فقد قرر علماء العربية إن صيغة أفعال من جموع القلة لا تطرد إلا فى اسم ثلاثى مفتوح

(١) روح المعانى جـ٢١ ـ صـ٥٩ .
(٢) معترك القرآن جـ صـ
(٣) النور ـ الآيتان [٤٣ ، ٤٤] .

الفاء كبصر وأبصار أو مكسورها كعنب وأعناب أو مضمومها كرطب وأرطاب ساكن العين أو محركها . وصيغة فعائل من جموع الكثرة لا تطرد سوى فى اسم رباعى مؤنث بالتاء أو مؤنث بالمعنى ثالثه مد كسحابة وسحائب وبصيرة وبصائر وحلوبة وحلائب ، فاستعيرت الأبصار للبصائر بجامع ما بينهما من الإدراك والتمييز .

وذكروا أن هذا النوع من الجناس لا يكون بين حقيقة ومجاز .

والحق أن فى بلاغة البديع متسعا لمثل هذا الفهم، والتوجيه على نحو يصير لما هدى إليه الشيخ مجالا يعتد بمثله ، إذ ليس ثمة مانع حقيقى يحول ما دام لمثل هذا التوجيه موقع وأثر فى البلاغة والبديع يتوصل إليه بالبناء على كلام الإمام الذى أسس به بلاغة هذا الباب[1].

يقول الله تعالى:﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۞ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۞ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾[2] .

فالنظم الكريم فى سياق الحديث عما أصاب هؤلاء من دهشة وما لحق بهم من ذهول حين رأوا أهوال ذلك اليوم وحينئذ تذكروا أيام النعمة والسرور وتأسفوا عليها، فوصفوها بالقصر لأن أيام السرور قصار .

وإنما خص العشرة والواحد بالذكر لأن القليل فى أمثال هذه المواضع لا يصرح عنه إلا بالعشرة والواحد[3].

فالمراد بالعشرة واليوم، الدلالة على معنى القلة ومقر زمن الدنيا، فالذاهب وإن طالت مدته قليل، بالقياس إلى الآتى وإن قصرت مدته فكيف والأمر بالعكس .

---

(١) مقدمة أسرار البلاغة صـ ٤ ـ ١٤ .
(٢) سورة طه الآيات ١٠٢ ـ ١٠٤ .
(٣) التفسير الكبير جـ٢٢ صـ١١٥ .

ولهذا رجح الله تعالى قول من بالغ فى التقليل فقال تعالى : ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ .

هذا على القول بأن المراد بزمن اللبث المتحدث عنه زمان الدنيا، وأكثر أهل العلم على أن المراد من قوله:﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أى عشرة أيام . فيكون قول من قال : ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أقل، وقد أثر عن بعض السلف : ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أى عشر ساعات كقوله تعالى : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ وعلى هذا التقدير يكون اليوم أكثر"[1] وإن كان هذا مما لا يسنده ظاهر النسق كما هو خلاف للمتبادر .

وأما موضع المؤمنون فالكلام فى معرض التبكيت والتوبيخ بأمثال هؤلاء الذين كانوا ينكرون اللبث فى الآخرة أصلا، ولا يعدون اللبث إلا فى دار الدنيا ، فحين أيقنوا خلودهم فى النار، وقع عليهم هذا السؤال المبكت المستسخر من حالهم قال : ﴿كم لبثتم فى الأرض﴾ تنبيها لهم على أن ما ظنوه دائما طويلا هو يسير بالإضافة إلى ما أنكروه. وحينئذ تصير لهم الحسرة من حيث وقع بهم ما كانوا على اعتقاد خلافه .

وأما التعبير الواقع منهم جوابا : ﴿ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم﴾ فذو دلالة كاشفة عن بالغ ما حل فى نفوسهم واستقر من ذهول غطى عقولهم وأدهشهم، حتى صاروا على حال من الاضطراب الشديد، فلا يدرون ولا يستطيعون تعيين ذلك الذى سؤلوا عنه، فذكرهم اليوم وبعضه، رمز تلك الحيرة وأمارة ذلك الاندهاش وحجة على قساوة

(١) التفسير الكبير جـ٢ صـ١١٥، ١١٦ .

الموقف وفقدان التنبه، بعدما كانوا عليه من حال التعالى والحسم بطول الأمد فى الدنيا وانحصار أمانيهم فيها.

وعند الفخر لعلهم نسوا ذلك لكثرة ما هم فيه من الأهوال، وقد اعترفوا بهذا النسيان حيث قالوا [فاسال العادين] قال ابن عباس رضى الله عنهما، أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين وقيل مرادهم بقولهم : ﴿لبثنا يوما أو بعض يوم﴾ تصغير لبثهم وتحقيره بالإضافة إلى ما وقعوا فيه وعرفوه من أليم العذاب[1].

رأينا فيما سبق وفرغت منه الدراسة الآن كيف أن هذه التعبيرات العددية ، والتى كان منه وراءها الدلالة على التقليل أو النفى للزمن اصلا قد وردت فى سياقات كان بينها من الترابط والتكامل والتآلف ، حتى لكأن كل سياق سلم إلى صاحبه ، بحيث يتحقق بمجموعها وصف حال هؤلاء المتحدث عنهم وتصويرا لما كان عليه هؤلاء . وما صاروا إليه من بالغ تخبط واشتباه .

ورد ذكر هذا التعبير القرآنى : ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فى آيات ثلاث ، وإن كانت فى سياقات مختلفة وقد سبق الحديث عن آية المؤمنون.

١ - يقول تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٥٩] .

---

(١) التفسير الكبير جـ٢٣ صـ١٢٧ .

٢ - يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف / ١٢] .

٣ - يقول تعالى : ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ [المؤمنون الآيتان ١١٢، ١١٣].

فسياق موقع البقرة: ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، حديث من كلام ذلك المتعجب من حاله، وقد مر بالقدس بعدما خربت فأبدى استبعادا للبعث مع كونه من أنبياء بنى إسرائيل على اختلاف فى تعيينه ، فأراه الله من نفسه ومن غيره من الكائنات الأخرى المحيطة به من طعامه وشرابه، وكذا من حال حماره ما فيه آيات قدرته تعالى، ليظل ذلك عبرة ومثل على تمام قدرته تعالى له ولغيره .

والمهم أن هذا التعبير : ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فى هذا السياق دال على غاية استقصاره للمدة التى كانت زمانا لإماتته، مع كون ذلك الوقت زمان طويل، إذ هو مائة عام ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ﴾ وهذا الوقت الطويل المستغرق لإماتة ، مقصود ومراد فى إظهار مدى قدرته تعالى، إذ بعد مضى تلك المدة من الزمان المتطاول، أعيد وبعث فصار على ما كان كما صار ما حوله من طعامه وشرابه، مع تداعيه إلى الفساد فى القليل من الزمان بحكم طبيعة تركيب الغذاء والماء ، وكذا حماره كان قد بلى فلم تبق منه سوى عظام نخره فأحياه الله أمامه .

وأما القول بأن هذا الجواب منه : ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ إنما كان على جهة التخمين والتقريب، فأراه بعيدا إذ ليس له دلالة على ما الغرض أصالة له

وأبعد منه وأغرب ما قيل من أنه مات ضحى وبعث بعد المائة قبيل الغروب، فقال قبل النظر إلى الشمس لبثت يوما، فالتفت إليها فرأى منها بقية، فقال: أو بعض يوم على وجه الإضراب، إذ لا وجه للجزم بتمام اليوم، ولو بناء على حسبان الغروب لتحقيق النقصان من أوله[1].

وأما موضع الكهف فحديث شارح ومفصل لما كان بين أهل الكهف إثر إحيائهم من إنامتهم وتحاورهم حول المدة والزمان الذى استغرقه ركودهم فى كهفهم : ﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم﴾، وقد سميت هذه المحاورة تساؤلا، لأنها تحاور عن تطلب كل رأى الآخر للوصول إلى تحقيق المدة .

وقد عين أبو السعود القائل منهم وشخصه باسمه[2] ، والمهم أن ذلك المتسائل عن مدة تلك الإنامة هو واحد منهم لما بدا من مخالفة حالهم لما هو المعتاد فى الجملة.

وبناءا على ذلك يصير واضحا أن من أجابوا فقالوا يوما أو بعض يوم، هم من عدا الذى قال وسأل، وقد أسند الجواب إلى ضمير جماعتهم إما لأنهم تواطأوا عليه، وإما على إرادة التوزيع. أى منهم من قال : لبثنا يوما ومنهم قال : لبثنا بعض يوم .

وعلى هذا تحتمل (أو) دلالة التقسيم بأن يقول القائل: (يوما) بعضا منهم على حين قال قائلون منهم (بعض يوم) بدليل قوله من بعد : ﴿قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾ فحيث اختلفوا رجعوا فعدلوا عن القول بتعيين المدة بناء على الظن الغالب الذى لا يعد كذبا إلى تفويض العلم بذلك إلى الله تعالى .وهذا دون ريب ينبئ عن كمال تحقق الإيمان فيهم .

---

(١) تفسير أبى السعود جـ١ صـ٢٥٤ .
(٢) تفسير أبى السعود جـ٥ صـ٢١٣ .

وعلى كل حال فما يورده أبو السعود وجها للتعبير هنا ﴿يوما أو بعض يوم﴾ لا تكاد تطمئن إليه النفس، إذ لا مستند له من سياق أو أثر صحيح يعين وقت الإنامة واليقظة، فقد أورد ما قيل من أنهم إنما قالوه لما أنهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم آخر النهار فقالوا لبثنا يوما فلما رأوا أن الشمس لم تغرب قالوا أو بعض يوم[1].

الكناية العددية عن الكثرة :

أ ـ الكناية عن الكثرة بلفظ عددى مجمل :

يقول تعالى فى قصة أهل الكهف إجمالا للأمد الذى قضى به عليهم بالضرب على آذانهم : ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [2].

ولفظ (عددا) هنا وصف (سنين)، على معنى ذوات العدد بما يفيد معنى الكثرة، ونظيره ما فى حديث بدء الوحى من قول عائشة "فكان يخرج إلى غار حراء يتحنث فيه الليالى ذوات العدد" تريد الكثيرة. وقد أجمل العدد هنا تبعا لإجمال القصة، ثم فصل على وجه النسق والتحديد ﴿ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا﴾ [3]على ما هو مذكور فى موقعه .

وعند صاحب الكشاف احتمال إرادة الكثرة أو القلة. يقول الزمخشرى (ويحتمل أن يريد الكثرة وأن يريد القلة لأن الكثير قليل عنده كقوله : لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) [4].

وعند الزجاج أن المعدود إذا قل فهم مقدار عدده، فلم يحتج أن يعد، وإذا كثر احتاج إلى أن يعد .

---

(١) تفسير أبى السعود جـ٥ صـ٢١٣ .
(٢) سورة الكهف : ١١ .
(٣) صحيح البخارى حـ ١ ص ٦ .
(٤) الكشاف جـ٢ صـ٤٧٣ .

وكلام الفراء على أن (عددا) هنا بمعنى معدودة فهو دال على معنى القلة، فالعدد هاهنا مع السنين بمنزلة قوله تعالى فى يوسف : ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ (١).

والبين الأوضح أن التعبير العددى يفيد معنى الكثرة ، بشهادة سياق التفصيل الوارد : ﴿ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا﴾، فهذا عدد كثير لا شك، وفى الغرض الدلالة على طول مكث هؤلاء الفتية فى كهفهم مدة هذه السنين الطوال، إذ من مرامى هذه القصة الرمز إلى قدرته تعالى على أمر البعث، يرشد لذلك إيثار لفظ البعث دون اليقظة (ثم بعثناهم)، والبعث هنا الإيقاظ أى أيقظناهم من نومتهم يقظة مفزوع . كما يبعث البعير من مبركه . وحسن الاستعارة هنا أن المقصود من هذه القصة إثبات البعث بعد الموت، فكان فى ذكر لفظ البعث تنبيه على أن فى هذه الإفاقة دليلا على إمكان البعث وكيفيته ووقوعه .

والتنزيل على ما فى قصة يوسف لا اراه يستقيم، فالتعبير هناك (دراهم معدوده) مؤد لمعنى القلة قطعا، والمساق والسياق والغرض والقرائن كلها لذلك،وما يحف التعبير من سابق ولاحق ﴿بثمن بخس﴾ ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ تؤكد هذا أيضا فالأمر إذن مبناه ومستنده السياقات والقرائن والأغراض ، فهى الحاكمة وإليها المرجع أبدا فى فقه رموز الأساليب ومؤدى العبارات، فنظير قوله تعالى على ألسنة هؤلاء الكذبة: ﴿قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ(٢)﴾ وقوله تعالى :﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾(٣) التعبير فى هذا ومثله لمعنى

(١) معانى القرآن جـ٢ صـ١٣٥ .
(٢) سورة البقرة : ٨٠ .
(٣) سورة آل عمران : ٢٤ .

القلة القليلة وفاء بحق المعنى الذى زعموه وأردوا الترويج له، فكما كان حالهم حب الدنيا، ووداد التعمير فيها الزمن المتطاول، فحالهم كذلك يكون بإدعائهم بأن عذاب الآخرة بالنسبة لهم لا يدوم، أنما هو مس ولا ينالهم منه سوى زمن يسير، وأيام معدودة أو معدودات .

كما قد يفيد التعبير بلفظ السنين بغير الوصف (عددا) معنى الكثرة والزمان الطويل، كما فى قوله تعالى : ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (١) فحوار الطاغية مع موسى ـ عليه السلام ـ حوار من وأذى ، وتعبير بتذكيره بما كان له من فضل حيث مكث عنده وقتا طويلا من حياته الأولى، فذكر لفظ (سنين) هنا بدون إتباع بالوصف (عددا) مشعر بذلك الذى قصد إليه فرعون من وراء كلامه، هذا ونظيره مع اختلاف الغرض والسياق وإن كان فى شأن موسى ـ عليه السلام ـ أيضا قوله تعالى : ﴿وَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ (٢) بل قد يفاد دلالة الكثرة وطول الأمد بغير لفظ السنين كلفظ العمر كما فى قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٣).

بقى من بيان هذا النظم الكريم متصلا بشأن هذا التعبير العددى، الإشارة إلى المغزى من حصول المراد بمكث هؤلاء الفتية لتلك المدة المتطاولة على النحو والطريق المعبر به بالضرب على الآذان .

والضرب على الآذان كناية عن الإنامة، لأن النوم الثقيل يستلزم عدم السمع، لأن السمع السليم لا يحجبه إلا النوم أو افتعال

(١) سورة الشعراء : ١٨ .
(٢) سورة طه : ٤٠ .
(٣) سورة يونس : ١٦ .

عائق بخلاف البصر الصحيح، فقد يحجب بتغميض الأجفان ، وهـذه الكناية من خصائص القرآن لم تكن معروفة قبل هذه الآية وهى مـن الإعجاز .

يقول صاحب الكشاف (يعنى إنامتهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات، كما ترى المستثقل فى نومه يصاح بـه فـلا يسـمع ولا يستنبه[1] ، مع أن ظاهر حالهم اليقظة فعيونهم مفتوحة : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾[2] ، وبهذا يبدو ما فى حالهم من العبرة لمن لو رآهم من الناس، وقد أدمج فيه بيان كرامتهم، وعظم قدرة الله فى شأنهم، وهو تعجيب من حالهم لمن لو رآه من الناس. فهم فى حـال تشـبه حال اليقظة وتخالف حال النوم[3].

ب- بعدد مفصل بطريق التثنية :

يقول تعالى تدليلا على بديع خلقه السـموات : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [4] .

النظم الحكيم هنا يوجه النظر إلى عجيب خلق السموات وكونها على هذا الحال من الإحكام وهو يتحدى بعجيب هذا الصـنع الإلهـى تحديا يرد معه البصر عاجزا كليلا ذليلا مبهورا مدهوشا . ولتمام أمر هذا التحدى يستدعى البيان القرآنى النظر المتفحص المتأمل المـدقق مرة أخرى ، بل ومرات عديدة لمن شاء، فالسماء كتاب مفتوح، وقد تكون النظرة الأولى مجردة عن ذلك، فلربما فات مع النظرة الأولـى

---

(١) الكشاف جـ٢ صـ٤٧٣ وينظر معجزة القرآن للشيخ الشعراوى صـ٦٤ .

(٢) سورة الكهف : ١٨ .

(٣) التحرير والتنوير جـ١٥ صـ٢٦٠ .

(٤) سورة الملك : ٤ .

شئ لم تتبينه، فلتعدد النظر، ثم أعده مرة بعد مرة حتى تستيقن وتستبين.

فقوله تعالى ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً﴾ واقع فى جواب الأمر، والجوابية تقتضى الملازمةَ وما تضمنهَ لا يلزم من المرتين غالبا.

وعلى هذا فالمراد بالنظر كرتين لا ينصرف إلى خصوص مفهوم التثنية فحسب، وإنما التكثير كأنه تعالى يقول : ثم رد بصرك المرة بعد المرة ، بدليل السياق إذ البصر لا يكل بمجرد النظر مرتين اثنتين، وإنما يصير إلى تلك الحال بترديد النظرات الكثيرة، ثم إن فى هذا دلالة على بالغ التحدى من قبله تعالى ، فليعاود كل مكابر أو مكذب، فالمجال أمامه رحب، وهذا نظير ما يقال فى الدعاء : لبيك وسعديك فإن التثنية فى مثل هذا مفيدة لمعنى التكثير لا ريب .

ونظير قول الشاعر أيضا :

لو عد قبر وغير كان أكرمهم ∴ بيتا وأبعدهم عن منزل الزام

فإنه يريد لو عدت قبور كثيرة.

فالتعبير بالكرتين إذن لا يقصد به الدلالة المباشرة للكرتين، بل المقصود الكناية عن الرجعات الكثيرة كل رجعة فى إثر الأخرى.

ومن هنا يضعف قول من قال: إن التثنية على ظاهرها ، وإنما أمر برجع البصر إلى السماء مرتين، إذ يمكن أن يكون قد غلط فى الأولى فيستدرك بالثانية، أو تكون الأولى ليرى حسن خلق السموات واستواءها والثانية ليبصر كواكبها فى سيرها وانتهائها[1] وليس هذا على شئ لما سبق من دلالة السياق والغرض.

(١) روح المعانى جـ٢٩ صـ٨ .

جـ- بلفظ السبعة :

وقد ورد التعبير بالعدد (سبعة) كناية عن الكثرة، وكذا السبعين والسبعمائة، يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١) .

فقد جعل البحر الأعظم المعبر عنه فى قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ بمنزلة الدواة ، وجعل الأبحر السبعة مملوءة مدادا ، فهى تصب فيه مدادها أبدا صبا لا ينقطع .

وكما كان المراد بقوله تعالى : ﴿ مِن شَجَرَةٍ﴾ ما يعم ويشمل سائر ما على الأرض منها، فالمراد كذلك من البحار السبعة سائر بحار الأرض .

والسبعة: تستعمل فى الكناية عن الكثرة كثيرا كقول النبى ﷺ "والكافر يأكل فى سبعة أمعاء" فليس هذا العدد مفهوم، أى والبحر يمده أبحر كثيرة(٢) .

ويمده بفتح الياء التحتية وضم الميم ، أى يزيده مدادا ، والمداد بكسر الميم الحبر الذى يكتب به . يقال : مد الدواة يمدها، فكان قوله "يمده" متضمنا فرض أن يكون البحر مدادا، ثم يزاد فيه – إذا جف مداده – سبعة أو أكثر، ولو قيل : يمده بضم الميم من أمد لفات هذا الإيجاز .

ولذا يقول صاحب الكشاف ، فإن قلت: لم قيل من شجرة على التوحيد ، دون اسم الجنس الذى هو شجر؟ قلت أريد تفصيل الشجر وتفصيلها شجرة شجرة، حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا وقد بريت أقلاما .

---

(١) سورة لقمان : ٢٧ .
(٢) الكشاف جـ٣ صـ٢٣٦ .

وإنما كان إيثار التعبير (كلمات الله) على طريقة الجمع المفيدة للقلة دون ــ كلم الله ــ المفيد لمعنى الكثرة والموضع لذلك للدلالة على أن البحار لا تفى بكلماته فكيف بكلمه .

كما أن مجئ [من] وارءه الدلالة على المبالغة فى الاستقصاء والحصر، أى من بداية ما يتحقق فيه معنى الشجيرة، ولو كان لا يزال على حال الصغر، فالجميع داخل فى المراد والغرض يستدعى ذلك ويستقصيه حيث كان فى المقصود على ما تذكر أسباب النزول الرد على اليهود أو المشركين فقد ادعى قتلته أنبيائهم أستئثارهم بإتيائهم الحكمة. كما كان المشركون يزعمون أن هذا الوحى كلام سينفد، فاعلم الله تعالى أن كلامه لا ينفد .

فكيف تحسب اليهود ما فى التوراة هو منتهى كلمات الله ، أو كيف يحسب المشركون أن ما نزل من القرآن أوشك أن يكون انتهاء القرآن، فيكون المثل على هذا واردا مورد المبالغة فى كثرة ما ينزل من القرآن إغاظة المشركين، فتكون كلمات الله هى القرآن، لأن المشركين لا يعرفون كلمات الله التى لا يحاط بها "[1].

د ـ بلفظ السبعين :

كما ورد التعبير بعدد السبعين والمراد به الكناية عن الكثرة وقد ورد ذلك فى موقعين .

الأول : فى قوله تعالى فى مقام نهى النبى ﷺ عن طلب المغفرة للمنافقين : ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [2] .

و"سبعين مرة" غير مراد به حقيقة العدد، بل هذا الاسم من أسماء العدد التى تستعمل فى معنى الكثرة . قال صاحب الكشاف

(١) التحرير والتنوير جـ٢٠ صـ١٨٢ .
(٢) التوبة : ٨٠ .

"والسبعون جار مجرى المثل فى كلامهم للتكثر" ويدل على هذا قول النبى ﷺ "لو أعلم أنى لو زدت على السبعين غفر له لزدت" وهو ما رواه البخارى والترمذى من حديث عمر بن الخطاب ٠

ويذكر الألوسى استبعاد بعضهم عدم فهم من هو أفصح الناس وأعرفهم باللسان ﷺ إرادة التكثير من السبعين هنا، ولذا قال البعض: إنه عليه الصلاة والسلام لم يخف عليه ذلك ، ولكنه خيل بما قال إظهارا لغاية رأفته ورحمته لمن بعث إليه ــ كقول إبراهيم عليه السلام : (ومن عصانى فإنك غفور رحيم) يعنى أنه ﷺ أوقع فى خيال السامع أنه فهم حقيقة العدد المخصوص دون التكثير ، فجوز الإجابة بالزيادة قصدا إلى إظهار الرأفة والرحمة، كما جعل إبراهيم عليه السلام جزاء من عصانى أى لم يمتثل أمر ترك عبادة الأصنام قوله : ﴿فإنك غفور رحيم﴾ ، دون إنك شديد العقاب مثلا، فخيل أنه سبحانه يرحمهم ويغفر لهم رأفة بهم وحثا على الإتباع . وتعقب بأن ذكره للتمويه والتخييل بعدما فهم عليه الصلاة والسلام منه التكثير لا يليق بمقامه الرفيع، وفهم المعنى الحقيقى من لفظ اشتهر مجازه لا ينافى الفصاحة والمعرفة باللسان، فإنه لا خطأ فيه ولا بعد إذ هو الأصل. ورجحه عنده عليه الصلاة والسلام شغفه بهدايتهم ورأفته بهم واستعطاف من عداهم[1].

وعلى كل حال فمفاد هذه الكناية نهيه ﷺ عن طلب المغفرة لأمثال هؤلاء على هذا النحو الحاسم والقاطع ، بألا قبول لمثل ذلك ولا إلى التطلع لأن يأتى من أمثال هؤلاء خير، فقد سبق أن قدم السياق ما يكون دليلا على تأبى هؤلاء، وبالغ إعراضهم عن الحق وإدبارهم بتصوير كنائى أيضا معبر عن حقيقة حالهم هذه المستدعية كقطع الرجاء والتيئيس من استجابتهم ٠

(١) روح المعانى جـ١٠ صـ١٤٨ ــ ١٤٩ ٠

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ﴾ انظر إلى قوله (لووا رؤوسهم) أى عطفوها وأمالوها ، وفى هذه الحركة يكمن موقفهم النفسى من هذا العرض أى : ﴿تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وهو موقف لم تحلله العبارة تحليلا مباشرا مفصلا ولا مجملا، وإنما أومأت إليه وفتحت الطريق نحوه، وعليك أن تتأمل صورة أعناقهم ورؤوسهم وهى تميل وتنعطف فور سماع هذا العرض، لتدرك ما وراء ذلك من رفض وسخرية، وكفر، وغيظ، وحقد، وامتهان .

كل ذلك مشوب بشعور حاد، وانفعال محمى نحو هذا الرسول ومصادمة دعوته[1] .

الثانى : ومن استعمال التعبير بالعدد سبعين ايضا مرادا به الكناية عن أمثال الطول والكثرة ما ورد فى قوله تعالى فى سياق عرض مشهد سوق المعذبين إلى جهنم ، وهم على حال من المهانة والإزلال ، يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۞ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [2] .

والتعبير بكونها سبعين ذراعا كناية عن الطول الشديد إمعانا فى إظهار سوء الحال، قوله تعالى : (فاسلكوه)، فكأن خزنة جهنم قد أمروا بسلكه أى فأدخلوه بين ثناياها وإطوائها، ويظهر وجه التناسب ما بين لفظ السلك وبين الغرض ، لأنه لما بولغ فى طول السلسلة والتواء بعض أطرافها على بعض تصير بهذا وكأنها بمثابة وعاء يدخل فيه ذلك المعذب . فسلك الشئ فى الشئ إدخاله فيه كما تدخل اليد فى الجيب ، والخيط فى خرم الإبرة .

---

(١) التصوير البيانى د/ محمد أبو موسى صـ٣٦٦ .
(٢) الحاقة : ٣١ ، ٣٢ .

فكما أمر المكلفون بأمر ذلك العذاب بأن لا يوردوا ذلك الجاحد من طبقات النار إلا أشدها حرا ، وأقواها اشتعالا، فكذلك أمروا إلا يعذبوه من الآت العذاب إلا بأعظمها هولا ، وأبينها طولا[1].

والتعبير بـ(ثم) لتفاوت ما بين الغل والتصلية ، وما بينهما وبين السلك فى السلسلة فى الشدة[2] .

وعلى هذا فإن (ثم) لا تفيد هنا التراخى الزمانى، بل تفيد التفاوت الرتبى، فكأن ما بعدها أهم وأكمل فى نوعه مما قبله.

ويمكن أن يقال، القصد حينئذ أنهم أمروا أولا بسوقه إلى الجحيم مغلولا، وهناك يعاد تغليله بكبل أطول وأعظم فلا مفر ، وعلى هذا لا يبعد أن يكون قد لوحظ فى (ثم) إفادة التراخى الزمانى ، فهو يغل أولا ويعاد إلى الجحيم، فتمر عليه وهو يقاد إليها مدة يظنها لطولها سنين ، ثم إذا ورد الجحيم تمر عليه مدة طويلة ايضا قبل أن يكبل بالسلسلة، فيحسب أن ما هو فيه من العذاب آخر ألوانه، حتى إذا سلكوه فى تلك السلسلة، عرف أن هناك أنواعا منه أشد هولا، فيشتد حزنه ويعظم كربه[3].

وعلى هذا فالسلك غير الغل، إذ هو لاحق ومتأخر عنه زمنا، فهو مظهر آخر من مظاهر المبالغة فى التعذيب، فقد صار بهذا السلك على حال من الإرهاق لا يستطيع معه حراكا ، وأما الغل فقد كان أمارة من أمارات المهانة حين سوقه[4].

هـ- بلفظ عدد الألف :

يقول الله تعالى فى بيان بعض أحوال وطبائع اليهود وأنهم على غاية الحرص على الحياة، بعدما أبان أنهم لا يتمنون الموت :

---

(١) تفسير جزء تبارك للشيخ المغربى صـ ٤٠ .
(٢) تفسير أبى السعود جـ٩ صـ٢٦ .
(٣) تفسير جزء تبارك للشيخ المغربى صـ ٤٠ .
(٤) تفسير أبى السعود جـ٩ صـ٢٦ .

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (١) .

و(لو) الشرطية هنا قد أشربت معنى التمنى، ومعنى ألف سنة الكثرة ليشمل (من يود) أن لا يموت أبدا والألف العدد المعلوم من الألفة، إذ هو مؤلف من أنواع الأعداد بناء على متعارف الناس ، وإن كان الصحيح أن العدد مركب من الوحدات التى تحته لا الأعداد، وإنما قصد الألف بالذكر لأنها نهاية العقد فى الحساب (٢) .

والتعبير هنا فى مجال رصد خصلة أخرى من تلك الخصال التى طبع عليها اليهود ذلك أنهم لا يرجون لقاء الله، ولا يحسون أن لهم حياة غير هذه الحياة، وما أقصر الحياة الدنيا وما أضيقها حين تحس النفس الإنسانية أنها لا تتصل بحياة سواها ولا تطمع فى غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة فى الحقيقة والواقع . إن الإيمان بالحياة الآخرة نعمة عظمى، نعمة يفيضها الإيمان على القلب، نعمة يهبها الله للفرد الفانى واسع الاماني محدود الأجل ، وما يغلق أحد على نفسه هذا المنفذ إلى الخلود إلا وحقيقة الحياة فى روحه ناقصة مطموسة أمثال هؤلاء، فالإيمان بالآخرة فوق أنه إيمان بعدل الله المطلق وجزائه الأوفى . هو ذاته دلالة على فيض النفس بالحيوية، لا يقف عند حدود الأرض، إنما يتجاوزها إلى البقاء الطليق(٣).

وعلى هذا تكون الواو فى قوله تعالى : ﴿ومن الذين أشركوا﴾ هى الواو العاطفة، أى أن اليهود أحرص الناس على حياة وأحرص،

(١) سورة البقرة الآية : ٩٦ .
(٢) المحرر الوجيز جـ١ صـ١٨٢ .
(٣) فى ظلال القرآن جـ١ صـ٩٢ .

من الذين أشركوا كقولك: هو أسخى الناس ومن حاتم . هذا قول الفراء[1].

وقد أفرد الذين أشركوا بالذكر مع دخولهم فى جملة الناس، لأن حرصهم شديد، وفى هذا مزيد مبالغة فى توبيخ اليهود لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بالمعاد، وما يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم، فإذا زاد عليهم فى الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء كان حقيقا بأعظم التوبيخ. وهناك من يوجه الواو على الاستئناف ، ويصرف التعبير الحامل للعدد المعبر عن رغبتهم فى حياة ممتدة إلى المشركين، كما أن هناك من يحمل الكلام على التقديم والتأخير وتقديره . ولتجدنهم وطائفة من الذين أشركوا أحرص الناس على حياة،ثم فسر هذه المحبة بقوله:﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهذا بعيد

وإنما كان الأول أولى لظهور أن القصة فى شأن اليهود خاصة، فالأليق بحكم المساق والسياق أن يكون المراد : ولتجدن اليهود أحرص على الحياة من سائر الناس، ومن الذين أشركوا ليكون ذلك أبلغ فى إبطال دعواهم، وفى إظهار كذبهم فى قولهم إن الدار الآخرة لنا لا لغيرنا والله أعلم[2] ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ أية حياة، لا يهم أن تكون حياة كريمة ولا حياة مميزة على الإطلاق ! حياة فقط ! حياة بهذا التنكير والتحقير[3] .

وهنا ندرك شيئا من حسن موقع الكلمة فى خصوص سياقها والغرض منها ، فكلمة "حياة" فى هذا الموقع وفت بتمام التعبير عن

(١) معانى القرآن جـ١ صـ ٦٢ .
(٢) التفسير الكبير جـ١ صـ٢٠٨ .
(٣) فى ظلال القرآن جـ١ صـ٩٢ .

حقيقة الحياة المرجوة، حتى وإن كانت على هذا النحو من المذلة والمهانة والحقارة، ثم إنك لتجد هذه الكلمة نفسها وعلى صورتها وهيئتها فى موقع آخر، وقد دلت على نقيض هذا ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فمع اتفاق الكلمة فى الموضعين مادة وهيئة، تباين المؤدى واختلف الغرض، تبعا لاختلاف السياقات، وهذا دون ريب من خصائص التعبير القرآنى ودلالات ألفاظه وتراكيبه.

و- باللفظ العددى ألوف :

وقد ورد التعبير بالألوف جمعا، مرادا به الكناية عن الكثرة، فى قوله تعالى فى مقام تشجيع المسلمين على الجهاد ، والتعرض للشهادة وأن الموت إذ لم يكن منه بد ولا ينفع منه مفر، فأولى أن يكون فى سبيل الله : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (١) .

واضح أن تلك الجملة المعبر بها عن حال هؤلاء المتعجب منهم (وهم ألوف) كناية عن العدد الكثير فهم ألوف مألفه، وهذا مؤدى كلام صاحب الكشاف ، ولذلك لا أكاد إرى طائلا من اختلاف من اختلف حول تعيين هذا العدد على ما يورده صاحب الكشاف من أنهم عشرة آلاف أو ثلاثين ألفا أو سبعين ألفا، ومن بدع ما يذكرونه أن ليس المقصود بهذا التعبير العدد كما هو المتبادر وإنما ألوف أى متألفون جمع آلف كقعود وقاعد .

والأظهر المؤيد بالمشهور من مروى أسباب النزول، أن الكلام فى قوم من بنى إسرائيل وقد خرجوا من ديارهم خائفين من أعدائهم فتركوا ديارهم جنبا، وقرينة ذلك عندى قوله تعالى "وهم ألوف" فإنه

(١) البقرة الآية ٢٤٣ .

جملة حال ، وهى محل التعجب المفاد بما صدر به النظم الكريم "ألم تر" ، فهذا تقرير لمن سمع قصتهم من أهل الكتاب وأخبار الأولين، وتعجيب من شأنهم، ويجوز أن يخاطب به من لم ير ولم يسمع لأن هذا الكلام جرى مجرى المثل فى معنى التعجيب .

وإنما تكون كثرة العدد محلا للتعجيب إذا كان[1] المقصود الخوف من العدو فإن شأن القوم الكثيرين ألا يتركوا ديارهم خوفا وهلعا، والعرب تقول للجيش إذا بلغ الألوف "لا يغلب من قلة" قالوا إن قوم من بنى إسرائيل خالفوا على نبى لهم حين دعاهم إلى القتال جهادا وفارقوا وطنهم فرارا من الموت فى وهمهم فكان من نعمته تعالى ما قدره عليهم بما لا سبيل لهم إلى دفعة ليكون فى ذلك تمام العبرة، فهم فى حالهم تلك مثل قول الراجز :

وخارج أخرجه حب الطمع ∴ فر من الموت وفى الموت وقع

وعلى هذا تكون هذه القصة تمثيلا لحال أهل الجبن فى القتال بحال الذين خرجوا من ديارهم بجامع الجبن والاحجام ، وكانت الحالة المشبه بها أظهر فى صفة الجبن وأفظع، مثل تمثيل حال المتردد فى شئ بحال من يقدم رجلا ويؤخر أخرى، فلا يقال إن ذلك يرجع إلى تشبيه الشئ بمثله . وهذا أرجح الآراء لأن أكثر أمثال القرآن أن تكون بأحوال الأمم الشهيرة وخاصة بنى إسرائيل، والمشبهون يحتمل أنهم قوم من المسلمين خامرهم الجبن لما دعوا إلى الجهاد فى بعض الغزوات ويحتمل أنه فريق مفروض وقوعه قبل أن يقع ، لقطع الخواطر التى قد تخطر فى قلوبهم .

وأما ما يذكره ابن كثير عن عطاء من أن هذا مثل مفترض لا قصة واقعة، فيبعده أو يضعفه التعبير عنهم باسم موصول (الذين خرجوا من ديارهم) كما يؤيد فهم الإشارة إلى حادثة وقصة واقعة

---

(١) الكشاف جـ١ صـ٣٧٧ .

وليس مجرد مثل مفروض وقوعه للتعقيب : (إن الله لذو فضل على الناس)[1].

الكناية عن الكثرة والقلة فى السياق الواحد :

وقد يأتى فى السياق الواحد، ما يفيد الكناية عن الكثرة والقلة معا يحكم الغرض نظير ما فى قوله تعالى فى معرض إبراز ما عليه حال أهل الكتاب فى جانب المعاملة بعد بيان حالهم فى جانب الدين : ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2].

واضح أن السياق هنا يكشف عن ما بين أهل الكتاب من اختلاف وتباين فى هذا الحال .

السياق هنا يعرض نموذجين من نماذج أهل الكتاب فى التعامل والتعاقد والائتمان .

وأمثال هذا على طريقة هذا الدين الحق والقرآن الكريم فى الإنصاف وعدم البخس والغبن ، يجرى عليها القرآن الكريم فى وصف حال أهل الكتاب الذين كانوا يواجهون الجماعة المسلمة حينذاك والتى هى حال أهل الكتاب فى جميع الأجيال، ذلك أن خصومة أهل الكتاب للإسلام والدين والمسلمين ودسهم وكيدهم وتدبيرهم الماكر اللئيم . وإرادتهم الشر بالجماعة المسلمة وبهذا الدين . كل ذلك لا يجعل القرآن يبخس المحسنين منهم حقهم، حتى فى معرض الجدل والمواجهة، فهو هنا يقرر أن من أهل الكتاب ناسا أمناء، لا يأكلون الحقوق مهما كانت ضخمة مغرية، ولكن منهم كذلك الخونة

(١) التحرير والتنوير جـ٢ صـ٤٧٨ .
(٢) آل عمران :٧٥ .

الطامعين المماطلون، الـذين لا يـردون حقـا ـ وإن صـغر ـ إلا بالمطالبة والإلحاح والملازمة .

واضح إذن أن ليس المرد بالقنطار والدينار الحقيقة المفهومة بظاهر دلالته وإنما العبارة بالقنطار مراد بها الكثرة، وكما أن العبارة بالدينار تصرف الى القلة، يرشح هذا ما يؤثر فـى أسـباب النـزول يروى أن عبدالله بن سلام استودعه قرشى ألفا ومائتى أوقية ذهبـا، فأداه إليه والقناطير جمع قنطار وهو ما يزن مائة رطـل ، وأصـله معرب قيل عن الرومية اللاتينية الشرقية ـ كما نقله النقـاش عـن الكلبى وهو الصحيح ، فإن أصله فى اللاتينية "مكينتال" وهـو مائـة رطل وقال ابن سيده : هو معرب عن السريانية، لما فى الكشاف فى سورة النساء أن القنطار مأخوذ من قنطرت الشئ إذا رفعتـه فهـو خالص العربية وقد كان القنطار عند العرب وزنا ومقدارا من الثروة يبلغه بعض الموسرين ، وهو أن يبلغ ما له مائة رطل فضة .

ويقولون قنطر الرجل إذا بلغ ماله قنطارا وهو اثنا عشر الـف دينار أى ما يساوى قنطارا من الفضة، وقد يقال هو مقدار مائة ألف دينار من الذهب ، وإما الدينار فرومى معرب وأصله دنار[1].

ومما يؤكد دلالة هذا اللفظ الملحق بالعدد على معنـى الكثـرة قوله تعالى فى سياق النهى عن استرداد الصداق أو شئ منـه عنـد إرادة استبدال الزوج بغيرها : ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا[2]﴾ الآية .

يقول صاحب الكشاف القنطار المال الكثير .فالقنطار إذن كناية عن المال الكثير المعطى صداقا، فهو هنا مبالغة فى مقدار المال وهى

(١) التحرير والتنوير صـ١٨١ جـ٣ .
(٢) سورة النساء : ٢٠ .

كثرة غير متعارفة، وهذه المبالغة تدل على أن إيتاء الكثير من المال صداقا مباح، حيث جعل التعبير عن القنطار كناية ومثلا لهذا [١].

ولذلك لما خطب عمر بن الخطاب ، فنهى عن المغالاة فى الصداق ، قالت له امرأة من قريش "يا أمير المؤمنين كتاب الله أحق أن يتبع أو قولك" قال " بل كتاب الله! لم ذلك؟ "قالت إنك نهيت الناس آنفا أن يغالوا فى صداق النساء؛ والله يقول فى كتابه : ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ فقال عمر " كل أحد أفقه من عمر" وفى رواية قال "امرأة أصابت وأمير أخطأ والله المستعان"[٢].

وإنما قدم النظم الحكيم ما يدل على الوفاء والأداء وإن كثر، (بقمطار) وتأخير ما يدل عنى المماطلة والتزرع وإن (بدينار) إنصافا لحق الفريق الأول وإشارة ، به وتنويها بشأنه، على خلاف ما عليه حال الفريق الآخر، لكونه على حال من الأخلاق الذميمة، التى حرص الإسلام والقرآن على تجنبها وإبراز خطئها، وهذه بالذات صفة يهود ، فهم الذين يقولون هذا القول، ويجعلون للأخلاق مقاييس متعددة . فالأمانة بين اليهودى واليهودى. أما غير اليهود ويسمونهم الأميين وكانوا يعنون بهم العرب [وهم فى الحقيقة يعنون كل من سوى اليهود] فلا حرج على اليهودى فى أكل أموالهم، وغشهم وخداعهم؛ والتدليس عليهم، واستغلالهم بلا تحرج من وسيلة خسيسة، ولا فعل ذميم] [٣].

ومعه إغراء وبعث على الاستمساك والمزيد من أمثال تلك الأخلاق التى يحرص هذا الدين على أن تشيع وتسود فكأن ما ذكر على هذا النسق من التقابل بمثابة المثل، فقدم الأجدر بالتنويه

(١) الكشاف جـ١ صـ٥١٤ .
(٢) التحرير والتنوير جـ٥ صـ٢٨٩ .
(٣) فى ظلال القمر صـ٤١٦ جـ ١ .

والاقتداء وأخر الأحق بالترك والاجتناب، وهذا التوجيه أدل مما قد يذكرونه من أن أمر التقديم هنا مراع فيه جانب الكثرة، ففى تقديم حال الموفين إشارة إلى أن هذا هو شأن أكثرهم، وأن القليل منهم مسوفون، ولذلك كان تأخير العبارة الدالة عن حالهم وفى تعديه فعل الائتمان بالباء دون (على) لتضمينة معنى فعل المعاملة قصدا إلى اتساع المعنى بحيث يعم المراد من صور المعاملات جميعا .

مجئ التعبير العددى رمزا :

من المعلوم أن الرؤيا الصادقة إنما هى حالة يكرم الله بها بعض أصفيائه الذين زكت نفوسهم، فتتصل قلوبهم بتعلقات من علم الله وتعلقات من إرادته وقدرته وأمره التكوينى بإعلامه تعالى إلهاما، فتنكشف بها الأشياء المغيبة بالزمان قبل وقوعها، أو المغيبة بالمكان قبل إطلاع الناس عليها إطلاعا عاما ، ولذلك قال النبى ﷺ "الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة" .

وللرؤيا مراتب : منها أن ترى صور تكون رموزا للحقائق التى ستحصل أو التى حصلت فى الواقع، وتلك من قبيل مكاشفة النفس للمعانى والمواجيد ، وتشكيل المخيلة تلك الحقائق فى أشكال محسوسة هى من مظاهر تلك المعانى، وهذا ضرب من ضروب الرمز والإشارة، وهو أرحب مدى وأوسع مجالا من التشبيه والتصوير المجازى والكناية، إذ لا تحده قيود العلاقة والجامع مع اتساع دائرة العلاقات لما جرى به العرف أو دل عليه بالقرائن والحال إلا أن التعبير الرامز يظل على كل حال غير مقيد بالعلاقات المباشرة والمتعارفة والمعينة للذهن على انصراف حتما إلى المراد، فالرمز إشارة وتعبير عن أحداث أو أشكال أو أشخاص مفترضة ومتخيلة أو واقعة أو متوقعة بوساطة علاقات أو روابط منشأها صاحب الرمز، أو يتصورها مصوغا له هذا فى جانب التعبير الرمزى الصادر عن فكر وخيال الأدباء والشعراء، وأما فى جانب الرمز الدينى، فالأمر مختلف

حيث يكون المعنى المرموز إليه مؤسسا على نوع علاقة، كما هو الحال فيما ذكر فى شأن نعاج خصمى داود ـ عليه السلام ـ ، أو يكون مبنيا على وحى وإلهام وإعلام ربانى، كما هو الشأن مع يوسف وآبائه عليهم السلام .

وإن كان هناك من توسعوا فى ذلك ، فكانت منهم المجازفة إرضاءا للهوى ، أو سعيا فى غير ضرورة ، حيث قد رأينا بعضا ممن ينزلون بعض آيات الذكر الحكيم على مقتضى الرمز نظير ما زعموا فى شأن أفضلية ليلة القدر بألف شهر استجابة منهم لأغراض لا تتصل بطبيعة البيان القرآنى ومراميه،وحكمه ومقتضيات سياقاته ، وإنما هو نفاق لمذهب بعينه، وموالاة لاتجاه خاص، كما كان منهم أيضا من حاول تنزيل ما كان عليه عدة زبانية جهنم على مقتضى الرمز أيضا ، والبناء على ذلك بذكر وتعين المرموز إليه، مع أن التركيب العددى بصريح النظم قد حسم الأمر، ورد القضية بجملتها إلى حكم الله وعلمه، على نحو لا يبقى لأحد منها شيئا .

وقد كان ليوسف ـ عليه السلام ـ حظا من تعبير الرؤيا وتأويل أحاديثها وفهم دلالاتها ما قصة القرآن الكريم فى السورة المسماة باسمه فى موقعين:

الأول: ما كان فى حال رؤياه للكواكب ساجدين له مما قصه على أبيه يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف / ٤] وابتداء قصة يوسف ـ عليه السلام ـ بذكر رؤياه إشارة إلى أن الله هيأ نفسه للنبوءة، فابتدأ بالرؤيا الصادقة كما جاء فى حديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ "أن أول ما ابتدئ رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح" وفى ذلك تمهيد للمقصود من القصة، وهو تقرير فضل يوسف ـ عليه السلام

ـ من طهارة وزكاء نفس وصبر، فذكر هذه الرؤيا فى صدر القصة كالمقدمة والتمهيد للقصة المقصودة. وجعل الله تلك الرؤيا تنبيها ليوسف ـ عليه السلام ـ بعلو شأنه ليتذكرها كلما حلت به ضائقة، فتطمئن بها نفسه وأن عاقبته طيبة[1].

وإنما أخبر يوسف ـ عليه السلام ـ أباه بهاته الرؤيا، لأنه علم بإلهام أن للرؤيا تعبيرا، وعلم أن الكواكب والشمس والقمر دلالة على موجودات شريفة، وأن سجود المخلوقات الشريفة له إشارة إلى علو شأنه . ولعله علم أن الكواكب إشارة إلى موجودات متماثلة، وأن الشمس والقمر رمز إلى أصلين لتلك الموجودات، فاستشعر على الإجمال دلالة رؤياه على رفعة شأنه فأخبر بها أباه .

وعلى هذا فمن الواضح والحق الذى ليس وراءه إلا الباطل أن تلك الرؤيا إنما هى الحلمية المنامية، ليس فقط بناء على المشتهر فى عرف العربية من التفريق بين كل من الرؤية والرؤيا حيث تصرف الأولى إلى البصرية والثانية إلى الحلمية فى الأغلب والأعم، وإنما قلت فى الأعم لأنى رأيت المتنبى يستعملها فى رؤيا العين فى قوله:

ورؤياك أحلى فى العيون من الغمض

ولا وجه فيما أعتقد لتخطئة أمثال المتنبى، لكن يظل معنى الحلمية هنا هو المتعين بشهادة مساق الكلام، ومغزى العبارة والقصة، فمن بدع التفسير أن يقال إن يوسف ـ عليه السلام ـ قد رأى ما قصة مشهدا[2] فهذا كغير الملتفت إليه، إذ ينقضه صريح ما ورد على لسان يعقوب ـ عليه السلام : ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ﴾ [3] وأيضا:

---

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ١٢ صـ٢٠٨ .
(٢) روح المعانى جـ١٢ صـ١٧٩ .
(٣) سورة يوسف : ٥ .

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [1] ثم ما كان على لسان يوسف بعدما انجلى الأمر وكان ما أنبئت عنه رؤياه ورمزت إليه حيث قال: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ [2] وكذا ما ورد فى سياق العرفان والإقرار بفضل الله عليه حيث قال مناجيا وداعيا: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [3] .

فالأحد عشر كوكبا التى رآها يوسف ـ عليه السلام ـ فى نومه إنما هى رمز إلى إخوته وقد كانوا أحد عشر على وفق العدد المرئى كما أن الشمس والقمر رمز إلى أبويه على الأصح .

ولا حاجة بنا إلى تعيين تلك الكواكب بأسمائها على نحو ما خاض فيه بعض المفسرين واضطربوا فى ذلك[4] بما لا طائل تحته إذ لا مدخل ولا ثمرة تجنى، وإلا لفصل البيان القرآنى وحدد، وما يرونه فى هذا من أحاديث فمحكوم عليها بالوضع .

وتخصيص كل من الشمس والقمر بالذكر وعدم إدراجهما فى العدد السابق فى عموم الكواكب، دلالة على اختصاصهما بمزيد معنى فى ذاتهما فلهما امتياز عن غيرهما من حيث التكوين والأثر والمنافع للناس كما أن لهما مزيد مزية فيما يرمزان إليه، فهما رمز إلى أبوى يوسف ـ عليه السلام على الأرجح دون أن نخوض كما خاضوا[5] فى تعيين المراد بكل من الشمس والقمر من الأبوين، إذ لا مستند لأمثال هذا من واقع البيان القرآنى، ولا صحيح مروى ومأثور وإنما هى مجرد تخمين أو متابعة لعرف قد يصير التحاكم إليه فى مثل هذه الأحوال الخاصة ضربا من التحكم، وأما المجئ بهما مؤخرين فجرى

---

(١) سورة يوسف : ٦ .
(٢) سورة يوسف : ١٠٠ .
(٣) سورة يوسف : ١٠١ .
(٤) ينظر روح المعانى جـ١٢ صـ١٧٩ .
(٥) ينظر روح المعانى جـ١٢ صـ١٨٠ .

على طريق قولهم لا يعرفه فلان ولا أهل بلده، وتقديم الشمس على القمر لما جرت عليه عادة القرآن إذا جمع الشمس والقمر، وذلك لكونها أعظم جرما وأسطع نورا وأعم نفعا من القمر، ولكونها أعلى مكانا منه، وكون فلكها أبسط من فلكه، ولكونها مفيضة للنور عليه، كذلك كما يقول أهل الفلك والمشار إليه من قبل بقوله سبحانه : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ (١) .

وإنما ورد التعبير القرآنى على هذا الأسلوب ولم يطو ذكر العدد لأن المقصود الأصلى أن يتطابق المنام ومن هو فى شأنهم وبترك العدد يفوت ذلك، فالساجدون له هم أبواه وإخوته الأحد عشر كما يدل له قوله ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ فالإشارة بهذا إلى سجود أبويه وإخوته له هو مصداق رؤياه . فقد صيرها الله حقا فقد كانت تلك الرؤيا من الشئون الرمزية التى يكاشف بها العقل الحوادث المغيبة عن الحس فلم تكن باطلا من أضغاث الأحلام الناشئة عن الأخلاط أو الانحرافات الذهنية أو النفسية وإنما كانت قبسا من أنوار النبوة وإرهاصا من إرهاصاتها ومزيد فضل منه تعالى ليوسف ــ عليه السلام ــ كما كان من قبل آباؤه إبراهيم وإسحق ويعقوب .

الثانى : ومن هذا القبيل من التعبير بالعدد الرامز ما ورد فى وصف خلاص يوسف ــ عليه السلام ــ من السجن . يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ۞ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ۞ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ۞ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ

(١) سورة يونس : ٥ .

أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ۞ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ۞ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [الآيات ٤٣ ـ ٤٩ يوسف] .

السياق الكريم هنا يعرض لرؤيا ملك مصر وتفسير يوسف ـ عليه السلام ـ لما تدل عليه وتأويل إشاراتها ورموزها.

ويبدو أن تعبير الرؤيا كان مما يشتغل به أهل هذا الزمان أو يعنون به، وكان الكهنة فيهم يعدون ذلك من علومهم، ولهم قواعد خاصة فى حل رموز وإشارات ما يراه النائم .

وكما أحسن الله تعالى بيوسف بأن جاء بأبويه وإخوته من البدو وخروا له سجدا تصديقا لرؤياه، فقد أحسن به تعالى أيضا بإخراج يوسف ـ عليه السلام ـ من السجن بفضل ما أوتى من تعبير رؤيا الملك وهو ما نعرض له الآن .

وقد وجد فى آثار القبط أوراق من البردى وفيها ضوابط وقواعد لتعبير الرؤى، واستفتاء صاحبى السجن يوسف ـ عليه السلام ـ فى رؤيهما، ينبئ بأن ذلك شائع فيهم، وسؤال الملك أهل ملئه تعبير رؤياه، ينبئ عن احتواء ذلك الملأ على من يظن بهم علم تعبير الرؤى.

ومراد المرسل من قبل الملك المستفتى بقوله : ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ﴾ أى فى رؤيا ذلك الملك وبيان ما وراءه وما يشير إليه، وإنما لم يصرح به لوضوح مرامه بقرينة ما سبق من معاملتهما، ولدلالة مضمون الحادثة عليه، وحيث أدرك هذا المستفتى مكانة يوسف ـ

عليه السلام ــ وعلو منزلته، عبر عن مراده منه بالإفتاء، ولم يقل كما قال هو وصاحبه أولا (نبئنا بتأويله) وفى تعليق فعل الفتوى بضمير الجماعة (أفتنا) مع أن المستفتى واحد إشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة، كما أن تعبير هذه الرؤيا مما يعنى الجميع وأنه فى ذلك سفير ومبعوث على ما ينبئ به قوله : ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾[1] .

وإعادة العبارات المحكية عن الملك والحاملة لرؤياه بعينها إشارة إلى أنه قد بلغ تمام ما تلقاه وفى هذا دلالة على أمانة الناقل .

وليأتى التعبير عن الرؤية المستفتى على وفق ذلك .

والمهم أن يوسف عليه السلام قد أجاب عما سئل عنه وأفتى، فقد عبر عن هذه الرؤيا بجميع ما دلت عليه ورمز كل لفظ منها إليه.

فالبقرات رامزة لسنين الزراعة، لأن البقرة تتخذ للإثمار ووصفها بالسمان رمز للخصب، والعجاف رمز للجدب والقحط والسنبلات رمز للأقوات .

فالسنبلات الخضر ترمز للطعام ينتفع به، وأما كونها سبعا فيرمز إلى الانتفاع بها فى تلك المدة المقدرة بهذا العدد فكل سنبلة رمز لطعام عام، فذلك يقتاتونه فى تلك السنين .

وأما السنبلات اليابسات فرمز لما يدخر، وكونها سبع رمز إلى إدخارها فى تلك المدة المعينة، لأن البقرة العجاف أكلت البقرة السمان. فسنو الجدب إذن قد أتت على ما أثمرته سنو الخصب، وأطلق الأكل فى قوله "يأكلن" على الإفناء مجازا ، كالذى فى قوله "ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم" وإسناده بهذا الإطلاق إلى السنين إسناد مجاز عقلى، لأنهن زمن وقوع الفناء.

---

(١) تفسير أبو السعود جـ٤ صـ٢٨٢ .

وأما قوله ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ فهو بشارة، وإدخال لمسرة الأمل بعد الكلام المؤيس. وهو من لازم انتهاء مدة الشدة، ومن سنن الله تعالى فى حصول اليسر بعد العسر[1].

والعام هو كالسنة فى مطلق الدلالة، ولكن كثيرا ما يستعمل العام فيما فيه الرخاء والخصب، والسنة فيما فيه الشدة والجدب، ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة، وكأنه تحاشيا عن ذلك وتنبيها من أول الأمر على اختلاف الحالة بينه وبين الحال السابق كان تعبير بالعام دون السنة على نحو ما هو واضح كذلك فى قوله تعالى: ﴿فلبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما﴾ .

((والحمد لله أولاً وأخيراً والذى بيده سبحانه وتعالى تمام الصالحات))

(١) التحرير والتنوير جـ١٢ صـ٢٨٧ .

المصادر والمراجع

* ــ القرآن الكريم .

١ - أدب الحوار والمناظرة د/ على جريشة ط: الوفاء للطبع والنشر الطبعة الأولى سنة ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م .

٢ - أدب القرآن د/ فؤاد شاكر ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

٣ - اجتهادات فى التفسير العلمى فى القرآن الكريم د/ محمد عادل أبوالخير ط: مركز الدلتا للطباعة .

٤ - أسرار التكرر فى القرآن للكرمانى ط: دار الاعتصام . الطبعة الثالثة ١٩٧٨م / ١٣٩٨هـ .

٥ - أسماء القرآن الكريم فى القرآن د/ خمساوى أحمد الخمساوى كتاب الجمهورية بدون تاريخ .

٦ - الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى تحقيق / محمد أبوالفضل إبراهيم الناشر مكتبة دار التراث بدون تاريخ .

٧ - الإسلام فى عصر العلم الرسالة والرسول والقرآن والإعجاز العلمى د/ محمد أحمد الغمراوى ط/ دار الإنسان الطبعة الرابعة ١٤١١هـ ــ ١٩٩١م .

٨ - الاكسير فى علم التفسير عبدالكريم الصرصرى البغدادى تحقيق د/عبدالقادر حسين الناشر: مكتبة الآداب ١٩٧٧م.

٩ - التصوير البنيانى دراسة تحليلية لمسائل البيان د/ محمد أبوموسى الناشر: مكتبة وهبة ــ القاهرة ١٤٠٠هـ / ١٩٩٨م.

١٠ - الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق د/ عائشة عبدالرحمن ط: دار المعارف ــ مصر ١٣٩١هـ ــ ١٩٧١م.

١١ - الإعجاز العددى للقرآن الكريم ـ عبدالرازق نوفل ط دار الشعب ـ الريان ـ القاهرة ١٩٧٦م.
١٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوى ط: مصطفى البابى الحلبى الطبعة الثانية ١٩٦٨م.
١٣ - الإيضاح فى علوم البلاغة المعانى والبيان والبديع للخطيب القزوينى ط: محمد على صبيح ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م.
١٤ - بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم تأليف: كاظم الظواهرى ط: دار الصابونى، دار الهداية الطبعة الأولى : ١٩٩١م، ١٤١٢هـ .
١٥ - بديع القرآن لابن أبى الإصبع المصرى تحقيق : حفنى محمد شرف ط : دار نهضة مصر بدون تاريخ .
١٦ - بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة ـ عبدالمتعال الصعيدى ـ الطبعة السادسة مكتبة الآداب ـ بدون تاريخ .
١٧ - البرهان فى علوم القرآن للزركشى ـ تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم ط: دار المعرفة ـ بيروت ١٣٩١هـ ، ١٩٧٢م.
١٨ - البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى وأثرها فى الدراسات البلاغية د/ محمد حسين أبو موسى ط: دار الفكر العربى بدون تاريخ.
١٩ - تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، شرح ونشر : السيد أحمد صقر ط: دار التراث الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ ، ١٩٧٣م.
٢٠ - تفسير أبى السعود ط: عبدالرحمن محمد ـ القاهرة بدون تاريخ.

٢١ - تفسير البحر المحيط لأبى حيان ط: دار الفكر ـ بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٣م .
٢٢ - تفسير التحرير والتنوير للطيب ابن عاشور ط: دار سحنون ـ تونس ١٩٩٧م.
٢٣ - تفسير الشيخ الشعراوى ط: أخبار اليوم .
٢٤ - تفسير الطبرى جامع البيان عن تأويل أى القرآن لابن جرير الطبرى تحقيق: محمد محمود شاكر مراجعة : أحمد محمد شاكر ط: دار المعارف بمصر ١٩٧١م .
٢٥ - تفسير الفخر الرازى المشتهر بالتفسير الكبير للفخر الرازى ط:دار الفكر ـ بيروت الطبعة الأولى: ١٩٨١م ، ١٤٠١هـ
٢٦ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير ط: دار إحياء الكتب العربية.
٢٧ - تفسير القرآن الكريم لمحمد عبده ط : الأميرية ١٣٢٢هـ.
٢٨ - جزء تبارك عبدالقاهر المغربى ط: الشعب ١٩٥٧م.
٢٩ - تفسير سورة فاطر د/ عبدالحسيب طه حميدة ط : دار نشر الثقافة سنة ١٩٧٠م.
٣٠ - تفسير غريب القرآن لابن قتيبة تحقيق : السيد أحمد صقر ط:دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.
٣١ - التبيان فى إعراب القرآن للعكبرى تحقيق : على محمد البجاوى ط: عيسى البابى الحلبى بدون تاريخ .
٣٢ - التبيان فى أقسام القرآن لابن قيم الجوزية ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٢م ، ١٤٠٢هـ .
٣٣ - التبيان فى غريب إعراب القرآن تأليف: أبوالبركات بن الأنبارى تحقيق د/ طه عبدالحميد طه مراجعة: مصطفى السقا ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٢٠هـ ، ١٩٨٠م.

٣٤ - التفسير البيانى للقرآن الكريم د/ عائشة عبدالرحمن [بنت الشاطئ] ط: دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة ١٩٦٨م.
٣٥ - التفسير الموضوعى لآيات التوحيد فى القرآن الكريم د/عبدالعزيز بن الدردير ط: مكتبة القرآن ١٩٩٠م.
٣٦ - التوفيق البلاغي لموهم التناقض فى القرآن الكريم د/صلاح الدين محمد أحمد غراب الطبعة الأولى ٢٠٠٢م ، ١٤٢٣هـ.
٣٧ - الجامع الصحيح سنن الترمذى لأبى عيسى محمد بن عيسى ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.
٣٨ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ط: دار الشام للتراث ـ بيروت.
٣٩ - حاشية الشهاب المسماة : عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى للشهاب الخفاجى ط: دار صادر ـ بيروت.
٤٠ - درة التنزيل وغرة التأويل الخطيب الإسكافى ط: منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت الطبعة الرابعة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.
٤١ - دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجانى تعليق: محمود محمد شاكر ط: الهيئة العامة للكتاب عام ٢٠٠٠م.
٤٢ - دلالات كلمات السلم والسلم والسلم فى القرآن الكريم د/ عاطف المليحى ط الأولى ٢٠٠٢ الناشر عالم الفكر ـ القاهرة.
٤٣ - رفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للحبكى الشنقيطى ط: مكتبة ابن تميمة ـ القاهرة بدون تاريخ .

٤٤ - روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للألوسى ط: دار الفكر ـ بيروت ١٩٨٣م ١٤٠٣هـ.

٤٥ - زاد المسير فى علم التفسير لأبى الفرج الجوزى البغدادى ط: المكتب الإسلامى الطبعة الرابعة : ١٩٨٧م ـ ١٤٠٧هـ.

٤٦ - صحيح البخارى بحاشية السندى ـ طبعة الحلبى ـ بدون تاريخ .

٤٧ - سورة الرحمن وسور قصار د/ شوقى ضيف ط: دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١م .

٤٨ - الصبغ البديعى فى اللغة العربية د/ أحمد إبراهيم موسى دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م .

٤٩ - عمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبى حققه د/محمد التونجى ط: عالم الكتب الطبعة الأولى ١٤١هـ ـ ١٩٩٣م.

٥٠ - عن بناء القصيدة العربية الحديث د/ على عشرى زايد ط: دار الفصحى ١٩٧٧م .

٥١ - غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى ط: محمود نصار الحلبى الطبعة الأولى ١٩٦٢ ـ ١٣٨١هـ.

٥٢ - فتح البارى شرح صحيح البخارى لأحمد بن على بن حجر العسقلانى راجعه : قضى محب الدين الخطيب ط: دار البيان للتراث ـ القاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

٥٣ - فى إعجاز القرآن : دراسة تحليلية سورة الأنفال المحتوى والبناء د/ أحمد مختار البرزه ط: دار المأمون للتراث الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨م.

٥٤ - فى ظلال القرآن لسيد قطب ط: دار الشروق الطبعة العاشرة : ١٩٨٢م ، ١٤٠٢هـ .

٥٥ - القرآن والتفسير العصرى للدكتورة عائشة عبدالرحمن ط:دار المعارف ــ القاهرة بدون تاريخ ٠
٥٦ - كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد تحقيق د/ شوقى ضيف ط: دار المعارف ١٩٨٠م ٠
٥٧ - كتاب الطراز ــ للسيد الإمام إمام الأئمة الكرام يحيى بن حمزة بن على إبراهيم العلوى اليمنى ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ بدون تاريخ ٠
٥٨ - الكشاف للزمخشرى منشورات أقتاب مهران ٠
٥٩ - لباب التأويل فى معانى التنزيل للخازن ــ نضير الخازن ط: مصطفى الحلبى الطبعة الثانية ١٩٥٥م ــ ١٣٧٥هـ٠
٦٠ - متشابه القرآن ٠ عبدالجبار بن أحمد الهمذانى تحقيق د/ عدنان محمد زرزور ط: دار التراث ــ القاهرة الطبعة الأولى ١٩٦٩م٠
٦١ - مجلة الإعجاز العلمى ط: تصدرها عن هيئة الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة ، رابطة العالم الإسلامى شوال ١٤٢١هـ العدد الثامن ٠
٦٢ - مشاهد القيامة فى القرآن للسيد قطب ط: دار المعارف ــ مصر بدون تاريخ ٠
٦٣ - مشكل إعراب القرآن لمكى تحقيق د/ حاتم صالح الضامن ط: مؤسسة الرسالة الطبعة الرابعة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م٠
٦٤ - معانى القرآن للفراء تحقيق : أحمد يوسف نجاتى ومحمد على النجار ط: الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٠م٠
٦٥ - معجزة القرآن لمحمد متولى الشعراوى ط: أخبار اليوم بدون تاريخ ٠
٦٦ - معجزات القرآن د/ شوقى ضيف ط: دار المعارف ٢٠٠٢ ٠

٦٧ - معجم البلاغة العربية د/ بدوى طبانة ط: دار المنارة ــ جده دار الرفاعى ــ الرياض الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م.

٦٨ - معجم آيات القرآن الكريم لمحمد منير الدمشقى ط: مكتبة التراث الإسلامى بدون تاريخ .

٦٩ - مغنى اللبيب لابن هشام ط: محمد على صبيح بدون تاريخ .

٧٠ - مفتاح العلوم للسكاكى . ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت بدون تاريخ .

٧١ - ملاك التأويل القاطع بدوى الإلحاد والتعطيل فى توجيه المتشابه اللفظ من أى التنزيل لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفى العاصمى الغرناطى تحقيق: سعيد الفلاح ط: دار الغرب الإسلامى . بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٣م ــ ١٤٠٣هـ.

٧٢ - من أسرار النظم القرآنى د/ محمد على أبوزيد ط دار الأرقم ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م.

٧٣ - من الإعجاز العلمى فى الرضاعة د/ أحمد شوقى إبراهيم د/إسلام محمد الشبراوى ط: المجلس الأعلى ــ القاهرة ١٢٢٤هـ ــ ٢٠٠٣م.

٧٤ - من الآيات العلمية د/ عبدالرزاق نوفل ط/ مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الأولى ١٩٦٦م.

٧٥ - من جمال النظم القرآنى فى سورة إبراهيم دراسة تحليلية وبلاغة مقارنة د .صلاح الدين محمد أحمد غراب ــ ط: دار الطباعة المحمدية الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ ــ ١٩٨٩م.

٧٦ - من روائع الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم د/ عاطف قاسم المليجى ط: النهار الطبعة الثانية ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

٧٧ - من عطاء نظم القرآن الكريم دراسة تحليلية لسورة الأنبياء د/عبدالحميد العيسوى الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
٧٨ - موسوعة الأعداد فى القرآن الكريم لمهدى سعيد رزق كريزم ط: دار طويق الرياض ١٤١٨ ـ ١٩٩٧م.
٧٩ - الموطأ للإمام مالك تعليق محمد فؤاد عبدالباقى دار إحياء الكتب العربية بدون تاريخ.
٨٠ - نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى ط: دار الكتاب الإسلامى ـ القاهرة الطبعة الثانية ١٩٩٢م ، ١٤١٣هـ .
٨١ - المثل السائر لضياء الدين ابن الأثير حققه أ.د/ أحمد الحوفى، د/بدوى طبانة ط: دار نهضة مصر ـ القاهرة بدون تاريخ.
٨٢ - المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٣م.
٨٣ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبدالباقى ط:دار الحديث ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
٨٤ - المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى تحقيق : محمد سيد كيلانى ط: مصطفى الحلبى الطبعة الأولى : ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.